غزال الدرب الأحمر

قصص قصيرة

سولاف هلال

الكتاب : عزال الدرب الأحمر .. قصص قصيرة

الكاتب : سولاف هلال

الطبعة : ٢٠١٦

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

هلال ، سولاف

غزال الدرب الأحمر – سولاف هلال – الجيزة – وكالة الصحافة العربية

ص ، سم .

تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٤٤٦-٢١٠-٧

أ. العنوان رقم الإيداع / ٥٧٥٧-٢٠١٦

غزال الدرب الأحمر



الإهداء

إلى أميرة
ملاكي الحارس وظلي الظليل

غزال الدرب الأحمر

هاجس تململ في داخله فور انتهائه من تدوين عنوان ينبغي التوجه إليه في الحال.
هذه هي المرة الأولى التي تطأ قدماه أسفلت هذا الدرب، لكن للدرب حكاية رافقته منذ صباه، وتكررت بذات الإيقاع على لسان أكثر من فرد من أفراد عائلته الذين يتقنون حفظ الأسرار ولا يتفوهون إلا بما هو مصّرح به، إنها حكاية عمه الذي ترك قلبه في ذلك المكان ولم يتمكن من استرجاعه مدى الحياة.

منذ سنوات خلت عشق عمه في مقتبل عمره فتاة لم يجد لجمالها طوال حياته نظيرا، فعاش على ذكراها دهرا، ومات عن عمر يناهز الثمانين دون أن يرتبط بامرأة قط.

وضع الفتى قدميه على أول الدرب، كان متوجسا.. دقات قلبه لا تهدأ ولا تستكين.. مما دفعه إلى رفع حالة التأهب إلى الدرجة القصوى

استعدادا لمواجهة بلطجية هذه الحارة، أو فتوات هذا الحي الذين سيتحققون من هويته حتما قبل أن يوغل في العمق، وقد يخرجون عليه مدججين بأسلحتهم البيضاء وشاهرين سيوفهم في وجهه، لأنه بالنسبة لهم ليس إلا غريب لا يعرفون من أين أتى وما هي نواياه، ولا شك أنهم يعرفون سكان هذا المكان كل باسمه ويعرفون أيضا أسماء أقاربهم ومعارفهم وعدد الكلاب السائبة في هذا الحي، لذا فإن التحقق من هويته وسلسال أجداده أمرا لابد منه.

كان بصره كالحديد، يمعن النظر في كل شيء، ويتابع تحركات سكان الحي بتوتر شديد.. وبين الفينة والأخرى يسحب نفسا عميقا وكأنه يستعد لضربة ستأتيه غدرا من الخلف، لكن أحدا لم يلتفت إليه.. فقطع الطريق إلى المكان الذي يروم الوصول إليه بسهولة ويسر.

هو رسام محترف يدق الوشم ويرسم بالحناء على أجساد النساء اللواتي لا يتحرجن من كشف مناطق حساسة من أجسادهن، وإخضاعها لأنامله الذهبية وكأنهن يخضعن لأصابع طبيب، وقد جاء تلبية لرغبة صاحبة محل التجميل بعد أن ذاع صيته حتى وصل إليهم في الدرب.

لعائلته تاريخ مجيد في صناعة الجمال، فمعظم أقاربه أسماء لها ثقلها في عالم التجميل وتصفيف الشعر، أما عمه فكان واحدا من الأسماء التي تعد على أصابع اليد الواحدة وقد زين بنفسه معظم فنانات الزمن الجميل.

كانت بدايات عمه في أحد صالونات الحي الذى يتجول فيه الآن، قبل أن ينتقل إلى أرقى شوارع القاهرة ليلمع نجمه ويصبح من مشاهير هذه المهنة، وقد عرف باسم مستعار لازمه حتى آخر العمر.

لفت انتباه الفتى وهو يتابع النساء العابرات أمام المقاهي والدكاكين وهنّ بكامل زينتهن، ألا أحد يعير لمرورهن انتباها رغم أنهن جميلات يرتدين ملابس تظهر فتنة أجسادهن دون قيد أو شرط ، لكأن كل واحدة منهن ابنة للجميع.

استقبلته صاحبة المحل استقبالا لا يخلو من حميمية، أوحت للحضور أنه معرفة قديمة امتدت من زمان الزمان، وهذا هو ديدنها مع القاصي والداني وعابر السبيل، إنه أسلوب تمرست عليه بحكم عملها الذي أكسبها خبرة في التعامل مع جميع أصناف البشر بمختلف أشكالهم وألوانهم ومزاج كل واحد منهم أيضا.

قالت له بغنج: "وريني يا واد صوابعك اللي تتلف بحرير.. أنا شفت شغلك ومش هسيبك.. والنعمة ما أنا سايباك إنت هتشتغل معايا على طول ها.. قلت إيه؟".

وبينما كان يبتسم ابتسامة متواضعة وخجولة ،اهتز باب المحل أثناء دخول شابة سبحان الخالق.. كل شيء فيها يقول ها آنذا!

ارتبك ارتباكا شديدا حال وقوع بصره عليها.. شعر بحرارة تجتاح جسده كله بعد تدفق كمية كبيرة من الأدرنالين في شرايينه، نتيجة انفعاله الشديد غير المبرر حتى بالنسبة له.

ضربت الفتاة بنظرة من عينيها أعمق نقطة في مشاعره التي كانت منذ لحظة تشكو من الركود، ثم كشفت بعد برهة قصيرة عن ساقها الأبيض، فنهض صعقا وقال اعذروني.. يجب أن أنصرف الآن.

رمقته الفتاة بنظرة متسائلة فانحنى، وقال هامسا: "لوح مين اللي يقدر يشتغل على الرخام المورّد ده".

أطلقت صاحبة المحل ضحكة رنانة، وقالت له: "اقعد يا أهبل هو أنت ليك أكل ولاّ بحلئة.. اقعد اشتغل بلاش كلام فارغ ده أنت واد نمس".

رسم على ساق الفتاة ثعبانا يكاد يطلق جرسا من شدة الإتقان، مما جعل صاحبة المحل تهتف بأعلى صوتها: "الله يخرب بيتك يا بعيد، إيه العظمة دي.. اشتغل.. اشتغل ده أنت لقطة".

وضع الفتى لمساته الأخيرة على ساق الفتاة، وبطريقة مموهة كتب رقم هاتفه ما بين الدوائر وبمحاذات الخطوط.. وتوسل إليها بعينيه أن تتصل فأكدت له عيناها أنها ستفعل دون ريب.

بدأ الشارع أكثر أمانا من حي يقطنه منذ أعوام.. غادرته تماما تلك المخاوف التي رافقته عند دخوله الحي بعد أن تعرف عليه من خلال

المعلومات التي جاءت على لسان "عم عبده" البقال الذي أطلعه على عراقة هذا الشارع وأهميته التاريخية، لاحتوائه على الكثير من الآثار الإسلامية، وكان الختام مسكا بالنسبة إليه حين قال "عم عبده" إن هذا الحي يستقطب الكثير من الطلاب والباحثين والسائحين وأبوابه مفتوحة على الدوام لكل أجناس البشر.

تذكر عمه أكثر من مرة أثناء عودته إلى البيت، لكنه عاد بهيئة لا تشبه تلك التي خرج بها، فلقد تغير كل شيء فيه من الداخل والخارج على حد سواء، وبات ليلته مؤرقا يتوسل إلى هاتفه أن يرن.. وبعد مرور وقت بدا له كالدهر، رن جرس هاتفه فجاء صوتها عذبا رقيقا يطرب الأسماع، كانت هذه هي البداية لحكاية جديدة سيشهدها الدرب وأهل الدرب.

أرخى الفتى رأسه على كتف الفتاة .. تشمم رائحة المسك التي تضوع من ثيابها ، حمى الحب تعمق الصلة بينه وبين الصمت ،فما حاجته للنطق بكلمات تعجز عن توظيف معنى يتوافق مع مشاعره المتدفقة كماء الينبوع .

اغتاظ من نفسه وهو يتأمل بوله وجه حبيبته فائق الحسن، فقد نسي أن يطلق عليها ذات اللقب الذي أطلقه عمه على محبوبته ذات يوم "غزال الدرب الأحمر".

قال محدثا إياها وكأنه يكمل حديثا توقف للحظات.. نعم أنت غزال الدرب الأحمر، وهذا اللقب لا يليق إلا بك.

ـ غزال الدرب الأحمر؟ من أين أتيت بهذا اللقب.. إنه لقب خالتي رحمها الله.. أطلقه عليها حبيبها منذ زمن بعيد.

أربكته المفاجأة، وبعد شد وجذب طلب منها أن تروي بدقة كل ما تعرفه من تفاصيل لعله يجد أجوبة لأسئلة كثيرة لطالما أرقته.

كثيرا ما أحس بأن حكاية عمه كان ينقصها حلقة ظلت مفقودة من سلسلة الحكايا التي كان يرددها الجميع، وقد أسقط عمه تلك الحلقة عامدا متعمدا، ومن المؤكد أنه سيعثر عليها الآن.

أصغى لحديث فتاته باهتمام شديد، فتبين له أن الحكاية لا تشبه تلك التي حفظها عن ظهر قلب.

"خالتي حسناء كانت أجمل فتاة عرفها الدرب وكان لها عشاق لا يمكن حصرهم، وقد تعذبت في حبها الكثير من القلوب، كانت مغرورة تلاعب عشاقها كالدمى.. تطردهم من جنتها متى شاءت وتكيل لهم السباب، باستثناء عاشق لم يفعل ما كان يفعله كل الرجال، فلقد حرص على إقامة مسافة تفصل بينه وبينها لم يتخطاها هو ولم يسمح لها بتجاوزها، كان ذكيا يعرف كل دواخلها ويحسب لكرامته ألف حساب فأحبته، وقررت أن تكمل معه مسيرة الحياة، هدأت خالتي كثيرا بعد أن لبست خاتمه، ولم تعد كما كانت من قبل، لأنها أحبته حبا صادقا تفوق

على حبها لنفسها، وعلى حد علمي أنهما عاشا أياما جميلة كالتي نعيشها الآن، لكن القدر لم يمهلهما فبكت على فراقهما حتى السماء.

كان الوقت يقترب من آذان الفجر حين تربص له نفر من الرجال، فانقضوا عليه كالوحوش ثم تركوه مضرجا في دمائه، هذا ما تناقله أهل الحي مع إشراقة الصباح، كانت الأخبار كلها تخرج من مصدر واحد "صبيان بعض تجار قرروا التخلص منه إلى الأبد، لأنه يحول بينهم وبين قلب خالتي الحسناء".

ظلت الألسنة تردد الحكايا، بينما الصبيان تعيد وتزيد بقصة العاشق التي انتهت بإخصائه!.

ولم يعرف أحد المصير الذي آل إليه الرجل، لأنه اختفى ولم يظهر مرة أخرى في الدرب، أما خالتي فتملكها الحزن وكرهت الدنيا بما فيها، حتى جمالها مقتته وحمّلته وزر ما حدث، وكثيرا ما كانت تلحق به الأذى في غمرة حزنها وفورة غضبها الشديد.. بقيت خالتي على هذا الحال حتى فارقت الحياة.

كانت الدموع تسيل مدرارا من عيني الفتى الذي عثر على الحلقة المفقودة من حكاية عمه على لسان حبيبته، فتوضحت أمامه أمور كثيرة، وهكذا عرف سر عزوف عمه عن الزواج، وسر ذلك الحزن الذي كان يستوطن عينيه، فحزن حزنا شديدا، وكاد أن يكره الدرب وأهله، لكن فتاته قالت له: "إن ما حدث كان في زمن غير زمننا، وأن سكان حينا

أناس طيبون يحبون بعضهم البعض ويتمنون الخير للجميع، وأن الذين قاموا بتلك الفعلة الشنعاء كانوا من قاطني الأحياء المجاورة"، ثم أردفت:

"خالتي وعمك أخذا نصيبهما من الحياة وفراقهما أمر مقدر، لا بد لنا فيه ،علينا أن ننسى مرارة الماضي ونلتفت لواقعنا السعيد".

استجاب الفتى لدعوة حبيبته، لكن روح عمه لم تفارقه وظلت ترافقه في ذهابه وإيابه من وإلى الدرب، هكذا كان يشعر، ثم ما لبث أن اختفى الطيف ولم يعاود الظهور.

وفي أول صورة تلتقط لمولودته الأولى.. بدت الطفلة وهي تتوسط كائنين نورانيين ، لا أحد يعرف من أين أتيا أو كيف ظهرا في الصورة ، وحده الفتى كان على يقين أن من يحتضن ابنته في الصورة ،هو عمه العاشق و معشوقته حسناء "غزال الدرب الأحمر".

جبل الدخان

هُسسسسسسسْ...

سوف أتحدث همساً لئلا يسمعني أحد، فأنا محاطة بالأوغاد..

خائفة أنا.. أرصد أيامي المتبوعة بالأذى وألتمس بقعة ضوء مسروقة من جسد ليل غمر نهاراتي كلها، وأبى إلا أن يقيم فيها أمدا لا يحده زمان.

منذ مدة وأنا أحاول أن أستعيد بعضا من صوابي، لعلي أصل إلى الحدود التي تقف عندها نفسي.. نفسي التي ضلت الطريق إلى جسدي المستسلم لمشيئة هذا وذاك.

أعاني كثيرا من ضعف جسدي المضطهد، وعقلي الغائب، من أثر تيارات الكهرباء التي أخضع لها رغما عني، أفعالي التي أقوم بها وأحاديثي التي ينفر منها الجميع، ما هي إلا حقيقة يأبى تصديقها أقرب المقربون لأنهم لا يجرؤون على الوقوف أمام الحقيقة وجها لوجه.

الآن وقبل أن أستجيب لرغبة عقلي المشوش التائه، سوف أهديكم أسرار حكايتي التي لا يفقهها أحد غيري، فأنا متورطة حتى النخاع.

رائحة البخور تثير حنق الرابض في أعماقي.. خلف الباب يقف مشعوذون وسحرة، ينتظرون إطلالتي، لينهالوا بعصيهم على جسدي المتهالك، لكنني لا أنوي الخروج إليهم لأنني قررت أمرا ما.. كما قررت أن أقص عليكم حكايتي، من أجل امرأة فقدت بياض أيامها وأرغمت على اعتناق السواد، لقد تركتها هناك، تصارع الدخان وتلهث بحثا عن نفق يوصلها إلي، لكنها لم تنجح لأنني وكما أخبرتكم سلفا، مازلت محاطة بالأوغاد.

في ليلة اشتد البرد فيها حتى اخترق العظام، قمت بإغلاق جهاز التلفاز وأطفأت الأنوار لألتحق بزوجي الراقد في الفراش منذ وقت باكر، دسست جسدي تحت الغطاء ثم ألصقته بجسده الدافئ، وقبل أن تذيب أنفاسه جليدا تكور تحت جلدي شعرت بانزلاق جسدي وكأن أيدٍ خفية تحاول سحبه لتلقي به خارج السرير، تشبثت بالملاءة، لكني لم أفلح، كانت القوة التي تسحبني تفوق قدرتي على المقاومة بعشرات المرات.

سمعت صوت ارتطام جسدي بالأرض، نهضت هلعة.. تلفت ذات اليمين وذات الشمال.. لا أحد! عدت إلى السرير وألصقت جسدي مرة أخرى بجسد زوجي المستغرق في نوم عميق، حاولت إيقاظه ليمتص فزعا زلزل أنفاسي، لكني أشفقت عليه.

لا نوم.. لا جواب لسؤال يكرر نفسه: "من الذي سحبني من قدمي وأسقطني على الأرض"، مرت ساعات على هذا الحال، وما بين الأرق والحيرة، سمعت صوت خطوات تدنو من السرير، رفعت بصري فاستقر على وجه مخلوق لا أعرف كيف تسلل إلى مخدعي ومن أين جاء، وقبل أن تصدر عني أية ردة فعل أومأ إلي برأسه، فتبعته دونما تفكير. في الممر المؤدي إلى قاعة الضيوف قال لي بصوت هامس، إن قومه ينتظرون تشريفي، وأنهم يقيمون الأفراح والولائم بمناسبة عقد قرانه بي، جحظت عيناي وتقهقرت خطوات إلى الوراء، لكنه سحبني من يدي بهدوء قائلا: "لا مناص من هذا يا حلوتي.. لا مناص.. نحن مخلوقات لا يرد لها قرار"، وبطرفة عين وجدتني أقف أمام جبل يسمونه جبل الدخان، كان لا بد أن أجتاز غلالة كثيفة من الدخان قبل أن أصل إلى قاعة الاحتفال التي تضم عددا غفيرا من المخلوقات المختلفة الأنواع والألوان، أقزام.. عمالقة.. مخلوقات تشبهنا إلى حد كبير، وأخرى لا تمت لنا بصلة على الإطلاق.. كائنات لها بشرة صفراء وأخرى زرقاء.. مخلوقات لها جسد آدمي ورؤوس حيوانات، ولها قرون مختلفة الأحجام والأشكال.

أصبت بالدوار وأوشكت على السقوط مغشيا علي، لكنه رفعني بكلتي يديه وحملني على ذراعيه، ثم سار بي في موكب مهيب، وعند عرش الملك والملكة أنزلني، وقدمني إليهما قائلا : هذه "زان زينار " محبوبتي.

كنت أريد أن أقول له أن هذا ليس اسمي، فإذا به يهمس في أذني رغم أني لم أتفوه بحرف، هذا هو اسمك من الآن، لكني سأناديك "زينار"

أعلنت الملكة بدء الاحتفال، وأمرت الفرقة الموسقية بقرع الطبول، في هذه الأثناء انطلقت الألعاب النارية لتضيء سماء جبل الدخان.

وبعد فترة وجيزة من بدء الاحتفال، انتقل الملك والملكة يصحبهم بعض الأشراف إلى البهو المجاور لتبدأ مراسيم عقد القران، وكنا على رأسهم بالطبع. لم تبهرني مساحة البهو الشاسعة والمفروشة بأرقى أنواع الأثاث بقدر انبهاري بالحركات البهلوانية التي قام بها بعض الأقزام على سقف البهو وجدرانه احتفاء بقدومنا. ثم ساد الصمت حين تقدم رجل قصير القامة يتدحرج كما الكرة تسبقه إلينا لحيته الطويلة البيضاء، حيا الملك والملكة بانحناءة مبالغ فيها، ثم شرع بإلقاء خطبة طويلة قبل أن يقوم بعقد الزواج، ورغم أن حالتي لم تكن مهيأة للتركيز أو الإصغاء، إلا أنني تمكنت من التقاط بعض عبارات خرجت بصعوبة من فمه الواسع والخالي من الأسنان، قال إن قانونهم لا يسمح بالزواج من مخلوقات إنسية إلا إذا تعذر على السلطان إقناع أحد أفراد مملكته بالعدول عن قراره، وإذا ما تم هذا الزواج فلا انفصال، ثم تلا بعض الكلمات غير المفهومة بالنسبة لي، فتعالت الأصوات المهنئة والمباركة لهذا الزواج، وصدحت الموسيقى في أرجاء المكان.

حملني الأمير ثانية، لكن إلى مخدعه هذه المرة، ليمارس حقه الذي منحه إياه كائن لم يسألني إن كنت موافقة على هذا الزواج أم لا، وأنا لم أتفوه بكلمة لأني كنت خائفة. عند شروق الشمس، كنت في غرفتي، أنام على سريري بالقرب من زوجي، كيف عدت.. متى جئت.. لا أتذكر؟

تنفست بعمق، وتمنيت أن يكون ما مر بي مجرد حلم، رغم أني أدرك تماما أن ما مررت به لم يكن حلما.

في اليوم الأول وخلال النهار لم يحدث شيء غير معتاد، فقد قمت بطهي طعام الغداء لزوجي وتناولناه معا، وكذلك العشاء، وعندما ذهبنا إلى النوم بدأت المعاكسات.

حين بدأ زوجي بتقبيلي، شعرت بيد تسحبني من قدمي بقوة، وكان زوجي يردد في هذه الأثناء، ما هذا .. ما بك .. ما الذي يحدث، وقد حاول الإمساك بي بكل ما أوتي من قوة، لكن الطرف الآخر سحبني ورماني خارج السرير كما فعل في المرة الأولى، لأنه يتمتع بقوة خارقة، إن كنتم تعلمون.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل راح يزداد ضراوة كلما حاول زوجي لمسي أو الاقتراب من جسدي، فصرت كما الحبل في لعبة "جر الحبل" هذا يشد وذلك أيضا والغلبة للأقوى، ولا يهم إن انقطع الحبل أو تهرأ، فنشوة الانتصار غاية تبرر الوسيلة، ولا مفر من العواقب التي ستترتب على هذا النزال.

انسحب زوجي من حياتي بهدوء، قال لشقيقتي الكبرى إنه لا يرغب في استئناف حياته مع امرأة مجنونة، تحدث نفسها ليل نهار، تدخل في اشتباك مع الهواء، تهدهد طفلا وهميا، وتخرج ثديها أينما كانت لترضعه، ناهيك عن امتناعها عني وانزلاقها من بين يدي بطريقة لا أعرف

كيف أصبحت تتقنها إلى هذا الحد، إنها مجنونة، مجنونة، ولابد أن تدخل مصحة عقلية، وإلا ستتسبب بكارثة لا يعلمها إلا الله، اللهم أني بلغت، اللهم فاشهد، ثم أرسل لي ورقة الطلاق بعد أيام.

أنا لا أحدث نفسي ولا أتعارك مع الهواء، أنا أتحدث إلى "أنيمار" والد ابني، وأتشاجر معه لأنه لا يدعني أرى طفلي إلا عندما يحين وقت رضاعته، وسرعان ما ينتزعه من صدري حالما يفلت الطفل حلمتي، ولا أعود أراه إلا بين الرضعة والرضعة.

أخبرت شقيقتي بكل التفاصيل، لكنها لم تصدقني، حتى عندما أخرجت لها ثديي ورأت بأم عينها، كيف يتدفق الحليب منه بغزارة، لم تصدقني أيضا، وأصرت على إخضاعي لعلاجات نفسية وعصبية دون جدوى، ثم اهتدت إلى جلسات التعذيب التي أرهقت جسدي، على أيد زمرة المتخلفين الذين ينتظرونني الآن خلف هذا الباب، لكني لا أنوي الخروج إليهم كما اتفقنا، لأنني مازلت مصرة على تنفيذ ما اعتزمت القيام به.

سأنسحب الآن .. لا بد من الانسحاب، لكني لن أنسحب لوحدي، بل أمهلوني لحظة.

يا الله... قطرات البنزين تشعرني بالنشوة.. أين الكبريت.. ها هو الكبريت. إذن... هُسسسسسسسسْ... سيختفي كلانا إلى الأبد.

زهور للبيع

موجة الأحلام العاتية تفزع السبات الرابض في نفوسهن مع إطلالة كل صيف.
عطايا الصيف هبة موسمية لا يتجرأن على مقاومتها وإن تركت على جلودهن وأرواحهن بعض الندوب.

مجنونة هي الرغبة في القفز من الأسفل إلى الأعلى، رغم العلم المسبق بحتمية السقوط، لكن اللعبة مشروطة بتقبل جميع المخاطر الناجمة عنها أملا في الحصول على العطايا التي ستبل العروق.

هناك في خضم القلق ووسوسة الرغبات تتسابق الخطى صوب موائد العرض والطلب، إنه سوق مفتوح يعرض بضاعته بأناقة وأدب، كلهن جميلات.. مهذبات وبنات أصول، هذا ما يقال على ألسنة الراعيات الرسميات لمهرجان الأجساد الذي يقام في كل عام، وما دام هنالك عرض وطلب إذن هنالك صفقات، فأية هبات سترفع رأس الكبرياء المدنس بالخطايا؟

حدثتها عن السياسة والاقتصاد.. عن آلاف الأسر التي تعيش تحت خط الفقر، وعن الرجل الذي فض بكارتها ثم لاذ بالفرار، قالت إنها منحت جسدها أكثر من مرة باسم الحب، فما الذي سيحدث لو منحته هذه المرة مقابل مبلغ طائل من المال؟

هذا هو موسم الحصاد، إنهم قادمون من كل حدب وصوب ليتوجوا الفاتنات، ويجزلوا عليهم العطاء مقابل ورقة صغيرة مدفوعة الثمن مقدما ومؤقتة بزمن ينتهي في أجل قريب، أليس هذا أكثر شرعية مما حدثتك عنه؟

حدثتها بدورها عن القناعة.. عن الجبين المتوج بالحياء، وعن أولئك الذين سحقتهم الرغبات، قالت لها لا تتمادي في ارتكاب المزيد من الخطايا، لا تجعلي المال قبلتك، ولا تدعي الظروف تروضك وتحط من قدرك، اهجري تلك الأيدي الآثمة وأولائك الغارقين في لجج الظلام.

جاء الأعراب تسبقهم شهواتهم وادعاءاتهم بنبذ الحرام، امتدت الموائد وغص السوق بالصبايا الحالمات برغد العيش، وكانت هي إحدى اللواتي فزن بتلك الورقة الملطخة بالعار.

Smoke

"ما فائدة الدنيا الواسعة إذا كان حذاؤك ضيقا"

"جون وليامز"

لم أكن منتشياً ، ولم أصب بالغرور، حينما تناهى إلى سمعي نبأ شهرتي التي اجتاحت العالم بأسره وتجاوزت حدود المعقول.

فبين ليلة وضحاها أصبحت نجما لامعا تتناقل أخباري الصحف وتتصدر صوري أغلفة المجلات، رغم أني لم أفعل شيئا سوى أنني أسعدت دون أن أدري بعض البلهاء.

بالله عليكم.. هل يستحق كائن مقهور مثلي ينعته القاصي والداني بالغباء، أن يرتفع سعره حتى يصبح ضربا من ضروب الخيال!

ها أنذا قد أصبحت شخصية عامة دون أن أسعى إلى شيء، إنه القدر الذي ساقني إليهم في ليلة دهماء.

كنت ضالا.. جائعا.. أعاني من جروح مؤلمة أصابت وجهي وساقي جراء السقوط في حفرة أودت بحياة صاحبي فيما كتب لي النجاة.

لم أجرؤ على العودة إلى البيت دونه، خشية اتهامي بما لم تقترفه يداي، خاصة أنهم يعتبرونني كائنا غبيا لا يحسن التصرف، رغم كل الخدمات التي أقدمها لهم والتي لا يحتملها أعتى الرجال، فطويت المسافة تلو المسافة حتى أصابني الإعياء، لكني واصلت المسير رغم تعبي وحزني على صاحبي الطيب الذي قضى نحبه حال ارتطام رأسه بصخرة كانت تقبع على جانب من جوانب الحفرة، وهي ذاتها التي ساعدتني على الفرار من ذلك القبر اللعين، فبعد محاولات مجهدة تمكنت من ارتقائها والخروج من الحفرة بأمان.

مرت صباحات ومساءات لم أتذوق خلالها ماء ولا زادا، وقبل أن تخور قواي تماما، عثرت على مكان آمن، عرفت فيما بعد أنه تابع لجنود الاحتلال.

وحتى أكون منصفا لابد أن أعترف بفضل أولئك الجنود الذين قاموا بتضميد جراحي، وقدموا لي الطعام والشراب حتى تماثلت للشفاء.

حاولت أكثر من مرة الفرار من معسكر الأعداء، رغم معاملتهم الطيبة لي، لكنهم كانوا يعيدونني ويعدونني بطيب المقام، وبين الرفض والقبول بوضع لم أستسغه منذ البداية، أصبحت فردا من أفراد إحدى قواعد المارينز التي تنتشر كالسرطان في عموم البلاد.

مهلا.. بماذا تفكرون؟ أرجو ألا تذهب أخيلتكم بعيدا وتتهموني بالخيانة، لا.. لا.. أنا لست بخائن، لكنني لا أملك زمام أمري، ولا أجيد التعبير عما يمور في داخلي، كما أنني عاجز عن التحدث كما تتحدثون، وأعجز أيضا عن الإدلاء برأيي كما تدلون، وهذه هي مشكلتي التي عانيت منها طوال حياتي كما عانى منها آبائي وأجدادي على الدوام، وسوف تعاني منها أجيالنا القادمة، فنحن كائنات تعمل بصمت وتتفانى في خدمة البشرية منذ قديم الزمان، لم يحدث أن امتنع أحد منا عن تأدية عمل أوكل إليه يوما ما، وهذا ما جعل الآخرون يطمعون بنا ويحملوننا ما لا نطيق، ورغم ذلك مازلنا نعمل بصمت، لأننا لا نملك وسيلة التعبير كما قلت لكم، وهذه المشكلة لطالما جلبت لنا المتاعب والإحراج.

لا أريد أن أثقل عليكم بطرح مبررات وادعاءات غير مجدية، لأنني لست بطلا ولا ضحية، بل مخلوق ضعيف لا يستطيع رد الأذى عنه، فكيف سيتمكن إذن من رد الإحسان؟

بعد مرور أكثر من عامين على تواجدي بين صفوف الأعداء، قررت تلك الوحدة العودة إلى الولايات المتحدة، فتم نقلي إلى وحدة أخرى، لكنني غادرت القاعدة بعد مناقشات طويلة دارت بين أفراد وقيادات الوحدة الجديدة، فتقرر تسليمي إلى شيخ عشيرة من عشائر الجنوب، وقد قام هو أيضا بتسليمي إلى عائلة أخرى، فرقصت فرحا لأنني تحررت من عقدة الذنب التي كانت تؤرقني، فلطالما عانيت من شعور

خفـي لم يتسـَن لي الإفصـاح عنـه إلا الآن، وهـذه هـي المـرة الأولى الـتي أكشف فيها عن مكنونات نفسي وستكون الأخيرة بلا جدال.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما تجاوز كل الحدود، فذات ليلة تلقى سيدي الجديد مكالمة هاتفية من شخص ما، وقد استرعى انتباهي تكرار ذكر اسمي فأصخت السمع.

ـ إذا كـانوا يريـدون اسـترجاعه حقـا فعليهـم أن يـدفعوا ثلاثـين ألـف دولار نظير تنازلي عنه.

لا أصـدق أن كائنـا مهمـلا مثلـي، يـأتي عليـه يومـا، يتخطـى فيـه حدود المستحيل، ليحظى بهذا الاهتمام الذي دفع مالكي إلى طلب هذا الرقم الخيالي!

وبـالطبع لم يكـن لي دور فيمـا قيـل وسيقال، فمـن أكـون أنـا؟ أنـا لست إلا كائنا أحمق شغل عقول أناس أكثر حماقة منه، المهم أنني تنصت جيدا على إحدى المكالمات، فتبين لي أن شيخ العشيرة يتفـاوض نيابة عن كولونيل متقاعد، كان يشغل منصب آمرا لوحدة المارينز آنذاك، وحسب علمـي وعلمكـم، وهـذا لـيس سـرا بعـد أن تداولتـه معظـم المواقـع علـى شـبكات الإنترنـت، أن هـذا الكولونيـل يقـود حملـة لـدعم عوائـل المحـاربين القتلـى والجرحـى ويقـوم بجهـود كبـيرة لنقلـي إلى نبراسـكا كـي أعمـل مـع الأطفال الذين جرح آباؤهم أو قتلوا في موطني العراق.

وقد علمت من مصدر موثوق، أن الكولونيل اتصل بالقاعدة التي تم نقلي إليها، حين أوشكت وحدته على الرحيل، وقد أخبره ميجور في الجيش الأمريكي أنني لم أعد موجودا في تلك القاعدة، فقد تم تسليمي إلى أحد الشيوخ، فجن جنونه عند سماعه هذا الخبر الذي لم يكن يتوقعه بالتأكيد، مما دعاه إلى توجيه اتهام صريح قال فيه: إن الجيش الأمريكي لم يكن على قدر المسؤولية التي حملها لهم، وأنهم ارتكبوا خطأ كبيرا حين استبعدوني وتسببوا لي بأضرار نفسية لا محال.

أكاد أشك في نوايا هذا الكولونيل وجنوده الذين وضعوني في هذه المكانة المرموقة واعتبروني رمزا للسلام، أي سلام هذا والأنوف مازالت معبأة برائحة البارود والدخان..!!

ستقولون مالك أنت وهذا الكلام، حسنا.. سأعود إلى الكولونيل الذي عظم شأني وقال إنني أدخلت السعادة في نفوسهم ونفوس كثير من الأطفال، وقال أيضا إن جنود المارينز ليسوا قساة القلوب كما يظن البعض، فهم ضعفاء جدا أمام الأطفال والحيوانات، وبما أن القواعد الأمريكية تمنع تواجد الحيوانات الأليفة، فقد احتضنوني واعتبروني أحد العاملين فيها، وهذا ما حدث بالفعل، فأنا الحيوان الوحيد أو الحمار الوحيد الذي دخل تلك القاعدة،وهم الذين أطلقوا علي اسم"smoke"ولا أعرف لماذا اختاروا لي هذا الاسم بالتحديد، لكن يمكنني التخمين حتما، فعلى الأرجح أنهم مولعون بالنار وما ينتج عنها من دخان، هذا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار معنى اسم "smoke" الذي

يعني بالعربية "دخان"، وحتى لا يتهمني أحد بالمبالغة أو عدم القدرة على التخمين كما تخمنون، فمن الجائز أنهم اختاروا لي هذا الاسم نظرا للوني الرمادي الذي يشبه إلى حد كبير لون الدخان.

مازلت أنتظر قرار ترحيلي إلى نبراسكا التي لا أعرف مكانها على وجه التحديد، وأمريكا أيضا بأطفالها ونسائها ورجالها تنتظر قدومي بفارغ صبر، لا أعرف ما الذي ينتظرني في بلد جنت رجالاته ففقدوا الصواب حين قرروا دفع ثلاثين ألف دولار مقابل حمار، أضف إلى ذلك تكلفة الطائرات التي ستقوم بنقلي إلى تركيا ثم إلى واشنطن ومنها إلى نبراسكا مقر إقامتي الجديد. أليس هذا جنون أيها الكرام؟

الآن أشعر بالتوتر والقلق.. خاصة بعد إحكام قيودي خشية الفرار، لهم الحق أن يفعلوا ذلك، فأنا حمار "لقطة" كما تقولون، وكما يقول المثل أيضا "رزق الهبل على المجانين"، و"عجبي "، على حد قول المصريين.

كنت أود لو أنني تمكنت من الهرب قبل أن يبتوا في أمري، كي لا أعطي فرصة لأولئك الأدعياء الذين غزوا بلادي، وتسببوا في مقتل أكثر من مليون شخص، دون أن يرق لهم قلب أو يرمش لهم جفن، ويريدون الآن أن ينعتوا أنفسهم بالرحمة من خلال حمار، سأكون غبيا بالفعل إن سمحت لهم أن يحققوا ذلك.

أنا لست أكيدا مما تفوهت به قبل قليل، للأسباب التي ذكرتها لكم من قبل، لكنني أتمنى أن تعلن القنوات الفضائية نبأ عاجلا يذكر فيه:

أن الحمار العراقي "سموك" الذي نال إعجاب الأمريكان قد أصبح بطلا شعبيا، بعد أن نجح في القيام بعمل بطولي عبر فيه عن رفضه القاطع للجهود الأمريكية التي تسعى إلى ضمه لحملات دعم تسعى إلى مساعدة ومواساة عوائل القتلى والجرحى الأمريكيين الذين أساؤوا لبلاده، بينما لم ير أحد قد قام بدعم ومواسات أبناء العراق.

انتهى البيان...

أيها الشعب العظيم: أحب أن أطمئنكم وأعدكم بألا أرتدي الحزام الناسف، حتى لا يتهموا الحمير أيضا بالانضمام إلى المنظمات الإرهابية. أتمنى من كل قلبي، أن أقول لا ولو لمرة واحدة، لا واحدة في وجه أمريكا، تعادل صمتي وصمت أجدادي، منذ خلقنا وإلى يومنا هذا، لأنني سأحقق من خلالها ما عجز بعض الآدميين عن تحقيقه، كيف سأتمكن من فعل هذا.. لست أدري؟ ولا أعرف ما الذي يتوجب علي فعله بالضبط، ولكن.. دعوني أفكر.

تلك أنا

لا جدوى من البحث.. لا بحث.. لا جدوى، قوافل دموعي اختلطت برماد نفسي، فهل يتمخض عن هذا المزيج إلا الألم؟

أمام المرآة أقف.. أحاور هيكلا بتّ أستنكره ، هل أنا وهم يبحث عن حقيقة؟ أم أنني محض دمية ورقية صنعها بهلوان محترف يجيد الإمساك بخيوط أكاذيبه؟!

لا كهنة بابل ولا آشور أو فرعون كانوا ليتنبؤوا بزلزال طمر تاريخي كله، أضغاث أحلامي بريئة من المصير الذي آلت إليه نفسي، وأنا.. أنا وبرغم ضآلتي بريئة من ضعف قادني إلى الاستسلام فخضعت لعملية تمت بنجاح دون مشرط.

في سباق مع الزمن وعبر رحلة البحث عن الذات أضعت من عمري سنوات نضرة، لم يطأ قلبي خلالها حب رجل، وعندما هممت بطرق أبواب الخريف راغمة، داعب رأسي هوس أهوج ظننتني أعرفه، بل

أعرفه، إنه شوق عتيق لضجيج المشاعر، لنبض في القلب لطالما أرقني غيابه، ولحظة اقتراب عيد مولدي، لاح في أفقي بدر هوى كما الشهاب ليشعل نارا التهمت حبي لذاتي وبرودة مشاعري.

منذ طفولتي وأنا أسعى خلف حلم لا أدرك معناه، كنت متوهجة، أمتلك عنفوان النسور، يحدوني الأمل في استثمار طاقتي على نحو يرضي الصوت الذي يصدح في الأعماق، يحثني على المضي قدما لتحقيق أهداف لطالما حلمت بها بوعي مني أو بغير وعي.

لم أعش الطفولة كما ينبغي لها أن تعاش، لأن طموحي كان أكبر من سني، وهذا ما دفعني إلى بذل قصارى جهدي لنيل أعلى الدرجات والمراتب التي تؤهلني لاقتحام أي مجال بثقة وجدارة.

عند انتهاء شوط ومع بداية شوط جديد، تختلف الأحلام.. تتبدل، تأخذ مسارات أخرى وأبعادا غير تلك التي نسجتها المخيلة من قبل، هكذا كبرت أحلامي ونضجت وصار لطموحي جموح أطلقت لجامه، فسار بي حيثما شئت.

لم أخذل أحدا أشاد بموهبتي ذات يوم، بل سموت بها وارتقيت.. حفرت اسمي بصبر وأناة بين الأسماء البارزة في مجالي الرسم والنحت، اشتركت بمسابقات عدة.. حصدت جوائز عدة.. سافرت إلى بلدان شتى، ويوما ما ضحكت.. ضحكت بنشوة، لأنني أدركت المعنى الذي كنت ألهث وراءه، فها أنا أقفز من نجاح إلى نجاح، أضيف يوما بعد يوم

قيمة جديدة لذات صنعتها بجد وكفاح، حتى صارت مبعث فخر لي ومحط أنظار الجميع، وهذا ما كنت أسعى إليه.

الحب وهم جميل سرعان ما نلقي بأنفسنا بين جدرانه دون قيد منا أو شرط، وأنا ما اكتفيت بذلك بل كبلت نفسي لئلا أهرب منه قبل أن يفعل هو ذلك.

يبدو الأمر ممتعا للوهلة الأولى وأنت تحاول فك رموز شخص ما، لكن غالبا ما تتحول المتعة إلى كابوس مزعج حين تجد نفسك عاجزا عن اجتياح ذلك الشخص، وأنه استطاع بمكر ودهاء أن يغلق بوجهك أصغر الثقوب الني تمكنك من اختراق ذاته وفك شيفراته، وستزداد غيظا حين تعلم بأنه يفعل ذلك عن وعي منه واقتدار، وأنه لن يسمح لك بالاقتراب من حدود تفكيره إلا إذا أراد هو ذلك.

حاولت مرارا أن أحطم الحاجز الذي يحول بيني وبين النفاذ إلى أعماقه لاكتشاف مايخفيه خلف الوداعة وبرودة الأعصاب دون أن أفلح، لأن الحوار معه أشبه بحبل مهترئ يستحيل معه الوصول إلى غاية، وما أوصلني معه يوما إلى اتفاق.

الطيور على أشكالها تقع، لا والله لم يكن كذلك، فلقد ارتبطت في الماضي أكثر من مرة، وأقمت علاقات غير مرة، لكنني لم أقع على طير كشاكلتي، لذا كرست حياتي لخدمة ذاتي، فالعثور على عقل يفهمك أصعب من الحصول على قلب يهواك، وبرغم زعمي بأنني خبرت الناس

والحياة، إلا أني غرزت نفسي في بؤرة الفشل من جديد، لأن محتويات رأسينا لم تتوافق يوما قط، ولم يحدث أن توحدت معه إلا في غرفة النوم.. وحالما أضع قدمي خارج السرير يعاودني الشعور بعدم الرضا والاستياء من وضع ليس بمقدرتي الاستمرار فيه.

لم تقتصر المسألة على مجرد الاختلاف في الرأي أو في وجهات النظر، بل تجاوزت ذلك بكثير، إنها مسألة حياة زاخرة بالعطاء الروحي والوجداني إزاء مجتمع بأكمله، أنا واحدة ممن يجسدون وعيه الإنساني بكل تناقضاته، أعبر عن المرحلة التي يعيشها بكل جوارحي.

انتصارات.. انكسارات.. تحديات.. هزائم، من أجل ذلك خلقت ولأجل ذلك أعيش، لا يمكنني أن أكون مجرد عابر سبيل في حياة حافلة بالمتغيرات، ولا يمكنني التخلي عن اسمي ودوري في ركب الحياة، لأكون مجرد مكوك يدور في حلقة مفرغة، لايليق بي أن أصبح مجرد امرأة لا تتقن سوى لعبة الحب، لايمكن أن تكون هذه هي نهاية المطاف.

ظللت أتحين الفرص، أتربص به ويتربص بي، وذات ليلة لا أعرف تسلسلها بين الليالي، تملكتني رغبة في اقتناص لحظة ظننت أنها ستحقق لي نجاحا ليس له نظير، وفي الواقع لا أعرف من منا الذي اقتنصها لصالحه هو أم أنا.

بـدا مسـرورا.. حانيـا.. متلهفـا لمعرفـة السـبب الـذي أطفـأ بريـق ابتسـامتي، تهيأت للرد.. تريثـت قليلا، ثم نويـت مواجهتـه ومكاشـفته بمـا تجيش به روحي.

ـ أنت تتجاهل معاناتي، أم أنك لا تشعر بها من الأساس؟

ـ أية معاناة هذه؟ وعن أي شيء تتحدثين؟

ـ أنت تعلم بأني هجرت العالم كله من أجلك، وتعلم أيضا أني تخليت عن الناس أجمع لا لشيء سوى أنك أردت ذلك، لقد أطعتك دونما اعتراض، احتملت عزلتي وصبرت عليها من أجل إرضائك، تمهلت كثيرا في اختيار التوقيت المناسب للعودة إلى عملي ظنا مني بأنك ستبادر بذلك، لكنك لم تفعل، والآن لابد أن أعود إلى العمل بل إلى الحياة.

ـ وهل ينقصك شيء. أي شيء؟!

ـ ماذا تقصد ؟

ــ هـل أهملـت طلباتـك أوعجـزت عـن تـوفير احتياجاتـك حـتى تفكـري بالعمل؟

ـ لا .. ولكن..

ـ ما الداعي إذن لطرح هذا الموضوع الآن؟

ــ هـل تظـن بـأني كنـت أعمـل طـوال تلـك السـنوات مـن أجـل تلبيـة احتياجات ما وحسب؟ أنت مخطئ إذن، لأن عملي هو جزء مني، بدونه أشعر بأني كيان غير مكتمل، كما أنه يمنحني الثقة والسعادة.

ـ اسمعيني جيدا واستوعبي ما أقول، لأني لن أكرر ما سأقوله الآن . المرأة كيان ضعيف يستمد قوته من الرجل، ولا كيان لامرأة إلا في ظل كيان زوجها.

ـ هذه وجهة نظرك أنت، أما أنا فلا أشعر بأني كيان هزيل أو ظل لكيان آخر، من أجل هذا أريد العودة إلى عملي.

ـ كفي عن هذا الجدال لأنه يستفزني ويثير غضبي.

ـ لم الغضب، أنت لم تطرح هذا الأمر منذ البداية فلماذا تفرضه علّي الآن؟

ـ قلت لك كفى، إياك أن تطرحي هذا الموضوع مجددا.

ماذا يظنني، امراة من عصر الحريم؟ أم ظن أنني لست إلا جارية ابتاعها بثمن بخس من سوق النخاسين في زمن علي بابا!

كان يجدر بي أن أضع له شروطا منذ البداية، وأن أضعه في اختبارات أيضا، لكني لم أفعل وانجرفت معه في تيار عاطفي ساذج حتى أصل إلى ما أنا عليه الآن.

ها أنذا أعتلي صهوة خيبتي، أتجرع المرارة التي أعقبت قراره الحاسم بمنعي من العمل، الغريب أنه اتخذ القرار نيابة عني ودون الرجوع إلي، وكأن الأمر لا يعنيني، ماذا ينبغي علي أن أفعل؟ وكيف يتسنى لي العيش في ظل رجل لايفقه عن المرأة شيئا ولا يعنيه منها غير ذلك الجزء الذي يستوعب شهواته، أية حياة هذه التي تستحق أن أعيشها مقتصرا عملي على إنجاز مهام منزلية لم أكن يوما بارعة فيها، لايمكنني أن أتخيل نفسي بلا ألوان،

دون أفكار تتراقص في الرأس ثم تقفز منه برشاقة لتتلقفها ريشتي الحرة ،وتجسدها في لوحة أنضم إليها، لنشكل معا كيانا متكاملا يستمر مع استمرار عملي فيها.

لا أفهم سر التأرجح بين الرفض أو القبول بوضع لا يتوائم مع طموحاتي ومع طبيعتي المحبة للعمل والاستقلال، لا أعرف لغز الصمت الذي يشل لساني كلما نويت التمرد على قراراته التي أسقطت الطمأنينة في بحر من الخوف وانعدام الرجاء.

قرأت في كتاب أهداني إياه أحد الأصدقاء عن تجربة أجراها بعض علماء النفس على أحد الكلاب.

ُوضِعَ الكلب في قفص مغلق ثم تم التعامل معه ومراقبته عن بعد، قام أحدهم بتمرير تيار كهربائي في أحد جوانب القفص، فصعق الكلب حال اصطدامه به، فما كان منه إلا تجنب ذلك الجانب والنأي عنه تماما، ثم ُمّر التيار ذاته في الجانب الآخر من القفص، فتحاشاه أيضا، وهكذا ظل التيار يمتد إلى أن شمل جوانب القفص جميعها.

عندما أدرك الكلب مكامن الخطر ابتعد عن مسبباته، وجلس في وسط المكان بلا حراك، حينئذ امتد التيار إلى الأرضية أيضا، فماذا يفعل ذلك الكائن المسكين في مثل هذه الحالة؟

صدرت عن الكلب حينها بضع أنات وبدت عليه علامات استياء من الوضع الذي وجد نفسه فيه، لكنه استكان في النهاية دون أن يصدر عنه أي رد فعل.

من المثير للدهشة والجدل أيضا، أن الكلب ظل ساكنا ولم يحاول الفرار رغم أن باب القفص قد أصبح مفتوحا على مصراعيه، ماذا يعني هذا؟هل تعوّد الكلب على الألم حتى أنه لم يعد يبالي به.. أم ماذا؟ تبدد الصبر.. تمدد الألم.. امتد.. انفلت من الحواس ليستقر في لب الروح، ما أقسى ألم الروح.

ماذا دهاني.. أتراني أحببته رغم ما به من علات؟ هل صرت عبدة لمتعة لا تدوم إلا للحظات؟ هل أرهقني مشوار حياتي فألقيت عليه أعبائي مثلما تفعل معظم النساء؟ وهل أنتمي أنا إلى هذا النوع من النساء؟

لماذا أرتضي الذل والهوان وأنا أتلقى الشتائم والإهانات التي يقذفها في وجهي لأتفه الأسباب؟ لماذا لا أواجهه بخياناته التي لاتحتاج إلى فراسة لتكتشفها أية امرأة مهما كانت حمقاء؟ لماذا أجنح إلى الاستسلام والصمود إزاء قسوته التي يصبها على جسدي الذي مايزال يحمل آثارها إلى الآن؟

لم يقدم على استرضائي، ولم أحاول استفزازه، طلبت منه برجاء أن يحضر لي أدوات الرسم وبضعة أمتار من القماش المخصص لذلك ثم أردفت:

ـ يمكنني ممارسة الرسم كهاوية على الأقل، لأقتل الضجر والفراغ قبل أن يقتلاني.

اضطرب.. ثار، ثم رمى غضبه في وجهي:

ـ أنت تصرين على استفزازي، ليكن بمعلومك إذن، أني لن أسمح لك بالرسم ما حييت.

ـ لماذا؟

ـ حرام.. الرسم حرام.

ـ حرام!

ـ نعم حرام، لأن الشياطين تتجسد في الهياكل المرسومة.

ـ لم أسمع بهذا من قبل، كما أني قضيت معظم حياتي في الرسم ولم يخرج شيطان واحد من بين لوحاتي .

ـ كفي عن هذا الهراء ودعينا نعيش بسلام.

ـ أي سلام هذا وأية حرب شيطانية ستندلع إذا مارسمت؟

ـ قلت لك كفى.

كففت عن مجادلته وركنت إلى الصمت، ثم رحت أفكر في الكلمات التي قالها والمغزى الذي يقف وراءها، لا أعرف ما الذي يدفعه لتبني هذه الخرافات، وإن كان هنالك من يؤمن بها، أعني بذلك أولئك المتطرفين في إيمانهم، أما هو فليس له مبرر، لأن طبيعة عمله تدفعه للتحالف مع الشيطان إذا ما لزم الأمر، فما شأنه هو بالحلال أو الحرام!

بلغت ذروة الغضب، فقد زاد الأمر عن حده، وتحتم عليّ أن أعيد حساباتي، وأن أعيد النظر في ارتباط لم يجلب لي إلا التعاسة، وقبل أن

أعتزم اتخاذ أي قرار غيّر أسلوبه معي واستبدل القسوة بالمودة، ثم راح يستدرجني للحديث عن الماضي.. عن الذكريات، فتهيأت للسعادة.

وبدأت أتحدث عن إنجازاتي وعن الشهادات والأوسمة التي حصلت عليها، وفجأة فقد الحديث سياقه، اذ راح يمزق كلماتي بأنياب السخرية، ثم دعاني للإنصات إلى حديث بدا مستأنساً أول الأمر.

ـ حين قررت الارتباط بك وضعت نصب عيني هدفا واحدا فقط، هو الاحتفاظ بك إلى ما لا نهاية، وهذا يعني أني لا أنوي التفريط بك أو الانفصال عنك إلا في حالة واحدة لاغير، هي موتي أو موتك.

أعرف أنك سئمت العيش على النحو الذي أفرضه عليك، لكن ليس أمامك سوى التعايش مع هذا الوضع، لأن رفضك له سوف يسبب لك متاعبا أنت في غنى عنها، وحتى أثبت لك حرصي على إسعادك، جلبت لك بعض الكتب لتسليك وتبدد الفراغ الذي تعانين منه.

حملت الكتب عناوينا مختلفة، لكنها تنبع من رافد واحد، وتصب فيه أيضا، أما فحواها فهي حث النفس على تقبل الآخر بحسناته وسيئاته دون مطالبته بإلغاء أفكاره أو تغيير طباعه، لأن ذلك ليس بالأمر اليسير، وربما يؤدي إلى رد فعل عنيف.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يسعى لتغيير حياتي وقلبها رأسا على عقب؟

قرأت بعض الكتب أكثر من مرة كي أفهم مغزاها، كان معظمها بمثابة ترويض للنفس ومساعدتها على التعايش مع واقع ما، مهما كان هذا الواقع غريبا أو غير محتمل.

استخلصت مما قرأته حقيقة واحدة وهي ترويضي، لكن مهلا.. يريد أن يروضني على ماذا ؟ على الضرب والإهانة.. على العزلة والحبس بين أربعة جدران، أم على طي أهم صفحة من صفحات حياتي؟

الحمقى فقط.. وحدهم الحمقى هم الذين يروضون، وأنا أشد سذاجة من فأر قذفوه في متاهة فهلك وهو يبحث عن وسيلة للحياة. كثيرا ما شعرت بأنني ذلك الكلب الذي تحمل آلامه وتآلف مع واقعه المرير، فهل سأرضخ للواقع نفسه؟ أيستحق كيان.. أي كيان أن تطيح بذاتك من أجله لتقف عاريا من الداخل متسترا بجسد أجوف لا يملك إلا الانصياع لأوامر ذلك الكيان.

يبدو أنه قد نجح في أن يجعلني ظلا إنثويا له، لأنني لم أناقشه في شيء، ولم ألمح ّإلى الكتب التي جلبها لي أو أعترض على ماورد فيها. البكاء محض حالة وقتية يلجأ إليها المرء لتسريب انفعالات قد تتلاشى بعد لحظات، لكن الرقص على الأطلال.. أية أطلال، هو بحد ذاته متعة، وما استمتعت يوما أكثر من استمتاعي وأنا أرقص على أطلال نفسي التي دفعتها ثمنا لتجربة أنا الخاسرة الوحيدة فيها.

مازلت أبحث عن نفسي دون جدوى، لكنني سأحاول استردادها، فالأمر يسير للغاية، إنها مجرد خطوة.. خطوة وحسب، بإمكانها أن تعيد إلي نفسي وترجعني إلى العالم الذي جئت منه، ذلك العالم الرحب الذي يتسع لفرحي ولجنون موهبتي.

فتحت الباب.. كان نهارا مشرقا.. أشاع البهجة في قلبي وأضاء عتمة نفسي، تنفست بعمق، الله.. ما أجمل طعم الحرية.

خرجت إلى الشارع .. تحركت ببطء.. كنت أخشى أن يلمحني.. تلفت حولي.. غذذت السير ثم عدوت بزهو أسير تحرر من وثاقه للتو.

في المساء كنت أعد عشاء شهيا لي ولجلادي، وأنا أردد جملة استخرجتها من خزائن ذاكرتي. "إذا أراد شخص ما اغتصابك ولم تستطع مقاومته فحاول الاستمتاع.

فلأستمتع إذن ما دمت قد عجزت عن مغادرة القفص رغم أن الأبواب كلها مشرعة أمامي.

عبور

يتسع المدى حين أمارس حقي في صناعة الحلم باندفاع خارق أحطم اللاممكن، لأعبر إلى الضفة الأخرى.. ينبسط الأثير.. يحملني على راحتيه في رحلة اشتهائي اللامتناهي.

ينتفض الوجود.. تتقاطر الحبات النورانية لتغطي المطلق على اتساعه.

بخفة أثب لكأنني الهواء الذي يمس جبيني ،على حافة الفردوس أقف يحاصرني اليقين من كل اتجاه.. الحياة تبدأ من هنا.

أخطو على العشب المندى بقطرات العنبر الفواح، يغمرني الشعاع المتكسر الذي ينبعث من الهياكل الفضية المتمايلة ذات اليمين وذات الشمال بلا انقطاع، إنها ترقص على أنغام الكون السرمدية.

أنضم إلى الجمع السامي بلا استئذان.. برشاقة أرقص على ذات الإيقاع.. تغمرني البهجة حينما أسلم وجهي لقطرات الماء البلورية المتساقطة من السحب الشفافة.

بنظرات طليقة أرنو إلى المدى الشاسع.. الأرض الخضراء تعانق خط الأفق بتناغم ساحر، الأجساد لا تنفك تتمايل بخشوع وكأنها تؤدي فريضة جماعية.

يقبل البدر النوري.. البدر النوري يقبل .. يرقص الكون على لحن احتفائي به .. من أجله تجاوزت كل الحدود ترافقني عناية السماء لبلوغ ضفته المشتهاة.

تحت عرائش العنب المخملية عانق النور دهشتي ،قال وهو يمسح من عيني لآلئ نشوتي:

ـ حدثيني عن الظلمة التي تقيمين فيها .. عن وجه اللحظة المكفهر التي أعلنتُ فيها انسحابي.

ـ ألا تعرف ؟

ـ بل أعرف .. أنا لم أغادر شطآن وجدي وينابيع شجوني ،وإذا ما انسحبت قسرا فهذا لا يعني أني تنازلت عن الشعاع الفيروزي الذي يطرز صدر أحلامي.

ـ هل تعني ..؟

ـ نعم أعني .. فأنا الشريك اللصيق بجنة خلدي، هل تذكرين كم مرة ناديتني واستدعيتني، ألم تشعري بوجودي ؟

ـ بل شعرت .. ولكن

ـ خانك اليقين!

ـ ربما

ـ تذكري كم مرة عانقتك، كم مرة انتشلتك من بحر الحزن الذي تغرقين نفسك فيه ،وكنت تظنين أنه ليس إلا حلما.

ـ نعم .. كثير، كثير

ـ لم يكن حلما!

ينبسط الأثير .. ينكمش فرحي .. يده المعطرة بالمسك تمتد لتلقي حجرا فيروزيا في باطن كفي وتغلق عليها بحنو أصابع.

ينطلق ذات الأثير الذي رفعني وجمح بي إلى الأعالي .. ليعيدني إلى حيث أتيت.

يضيق المدى.. يكفهر الوجود.. أسئلة لا أكترث بها تتوالى.. يرتجف قلبي بعنف قبل أن أفتح كفي التي تحتضن فيروزته المقدسة.

سوف يتحطم

تمهل...
لا تحفر قبرك بيديك ولا تقترف ما اقترفه غيرك حين استسلم لتباريح الألم وأعلن انسحابه، فالأمر لا يخصك وحدك.

تريث.. ودعني أساعدك لتساعدني في تجاوز هذه المحنة التي ألمتّ بكلينا الحياة ليست كما تبدو لك الآن.. بؤس ويأس.. يد مرتعشة وجسد خانع.. إذا كنت تظن أن هذا كل شيء فأنت واهم.

كلانا قيمة كبرى لا يضاهيها شيء في هذا الكون الشاسع..إذاً لا تفكر ولو للحظة أنك وصلت إلى نهاية المطاف، هذا لا يليق بنا أيها الساذج، دعني أبلغ بك الأعالي فأنا لم أصل إلى القمة بعد، ولن أصلها ما دمتَ مستسلما على هذا النحو الذي ينذر بكارثة ستحطم كل آمالي وتطوي صفحة لا أرغب بطيها في هذه المرحلة التي تتسع للمزيد من السعي الذي أعلق عليه الكثير من الأمنيات.

لا أطلب منك شيئا سوى أن تستجيب لتأملاتي.. أنت محبط ومتهالك.. أنا أعي هذا، لكنني أروم إنقاذك فأنت سبيلي لبلوغ أمر لا يمكنني الوصول إليه دونك.. تذكر فقط.. ما نحن عليه الآن ليس النهاية.. فما زال الخط ممتدا والرزق وفير.. ثق بي.. فأنا أعرف ما لا تعرفه.

سأذكرك بواقعة أعلنوا خلالها موتك الذي هو موتي بالتالي.. كنتَ قد دخلت في غيبوبة طويلة بعد حادث مروع تعرضنا له.. استسلمت أنت لكنني لم أستسلم.. تركتك عند حافة الحياة لأنقذك قبل أن تسقط فيما وراء.. تحدثت حينها للماء والشجر.. للشمس والقمر.. كتبت ابتهالاتي على جدران الأزقة والحواري.. توسلت إلى كل الكائنات أن تعاضدني وتشد من أزري.استجرت بالذي أبدع الخلق بنيّـة.. نويت أن أنجح في مسعاي فآزرتني كل الكائنات وتعاظم صوتي حتى استجابت له النية العظمى فكان ذاك يوم ميلادك الذي هو أيضا يوم ميلادي.

هل أدركت معنى النية أيها الراغب بالموت كمخلّص ومنقذ.. إياك أن تتمناه فلم يحن الوقت بعد صدقني.. أوجاعك التي لا تهدأ ولا تستكين ليست إلا حافزا يزيد من إصراري على استنفار كل طاقاتي من أجل غد مشرق أراه الآن من مخدعك الذي يضم هذا الكم من العقاقير التي لم تعد قادرة على تسكين آلامك.

هل تحتاج أن أذكرك بعدد المرات التي أشرفتَ بها على الموت.. من أنقذك؟

هذا سؤال ربما تعجز عن إيجاد إجابة له، فأنت لا تفعل شيئا سوى العمل بآلية غرائزية لا تعرف كيف تعمل ومن أين أتتك.. أنت لا تفكر لكي تجيب.. بل أنا.. ولا تقاوم.. أنا أيضا من يفعل هذا.. لا يعجبني هذا الاستسلام ولا هذا الشحوب الذي يكاد يمحو كل ما أحببته فيك وتناغمت معه مذ رأيتك في المرايا.

انتبه.. فلقد أعييتني.. عليك أن تسترخي الآن وتستقبل الطاقة التي سأبثها في أوصالك.. سوف أمنحك ما لم تستطع تخيله.. آه نسيت أنت لا تتخيل..أنا من يتخيل، إذاً كن قادرا على التحدي وحسب.. تحدي هذا الورم الجاثم في أحشائك لا تستسلم لهذا الدخيل.. اهزمه.. اقضِ عليه واتركه يرحل بعيدا وهو يجر أذيال خيبته.. دعه يعرف من تلقاء نفسه من هو ومن نكون.

لا تبتئس ولا تفكر بمنطق المنغلقين على ذواتهم.. كن حرا مثلي غير منقاد للمستويات الدنيا.. قف هنا حيث أقف.. عند الممر السري الذي انطلق من خلاله إلى العالم الأسمى.. قف هنا لتشعر بذات النشوة التي أشعر بها.. لا ترتبك.. أنا لا أخدعك بل أرفعك إلى الشأن الذي يليق بك.. كن واثقا من شفائك، فنحن قوة تَهزِم ولا تُهزم.

احتمي بي إن شئت ولكن، ساعدني لنزيل رائحة الموت التي علقت بأنفاسك.. قم لنحطم الحاجز الذي يحول بيننا وبين رؤية الحقيقة.. حقيقتنا!.

هيا.. انهض.. ودعنا نستنشق رائحة الحياة فإن القادم أجمل.

سلالم

كمن يرقص على السلالم هكذا أنا قضيت معظم حياتي في الرقص على السلالم دون أن يراني أو يسمع وقع أقدامي أحد.

غريبة هي أساليب القدر ، تمهد طرقا وتغلق سبلا ، والسعي أشبه بالسير داخل دائرة مغلقة تبدأ وتنتهي عند النقطة ذاتها، لأنه مرهون منذ البداية بضربة حظ قد تأتي أو لا تأتي ، ليس هذا ما أؤمن به بالمطلق وإنما أرجحه أحيانا خاصة عندما ينفلت اللجام من أيدينا ونصبح عاجزين عن السيطرة على مساراتنا ، عند ذاك لا يصبح هناك خيارا غير خيار السير وفق مشيئة القدر.

ترى كم مرة أفلت اللجام ؟ ..كم من مرة أسلمت قيادي للقدر؟
وهل بإمكاننا التحكم بمصائرنا حقا ؟!
يجب أن أعود إلى الوراء حيث البدايات التي يصعب التحكم بها ..

كنت طفلة وديعة ومطيعة ، ليس لها متطلبات ، بينما لي تطلعات تفوق تصور أي فرد من أفراد أسرتي الذين لا يعرفون شيئا عن عشقي الأول وربما الأخير ، فقد عشقت الموسيقى والغناء في سن مبكرة جدا وحفظت سراً وعن ظهر قلب كل أغاني عمالقة الغناء العربي دون استثناء ، لكني ويا للأسف لم أتمكن من أن أُسمع صوتي حتى لشقيقاتي الخاضعات لذات التسلط والكبت، خشية أن يذاع سري وينكشف أمري فأحرم من نعمة الاستمتاع بصوت الموسيقى التي هي عندي غذاء ودواء.

ليس أصعب من أن تخفي شيئا لا يرغب في الاختفاء، لكنني كنت مضطرة لإخفاء جوهر ذاتي وليس صوتي وحسب ،وعندما أكملت دراستي الثانوية كان خيار الالتحاق بمعهد الموسيقى أمرا مسلما به ، لكن ليس لفتاة مثلي لا تملك حق اتخاذ قرار يرسم مسارها تمهيدا للوصول إلى الهدف الذي تصبو إليه ، فكيف يتسنى لي إذن والوضع على هذا الحال أن أجرؤ على النطق بكلمة موسيقى، وفي البيت رجال أشداء هم إخوتي الذين يخشون علينا من الهواء كما تردد أمي عندما تبرر أفعالهم معنا وتسلطهم علينا، كان من الصعب أن أتفوه بكلمة لأن هذا يعد مجازفة بالحد الأدنى من حريتي إذا كان ثمة حرية.

طويت أحلامي في تلك المرحلة المبكرة من العمر، وكان من الطبيعي أن ألجأ إلى خيار الزواج كحل مضمون النتائج يتم من خلاله نقل السلطة من ثمانية أشخاص إلى شخص واحد بطريقة آمنة وشرعية، لعلي أخلق عند ذاك عالمي الخاص – المستقل، وفي مساء بعيد استيقظت

الأحلام مشعلة الرغبة في داخلي من جديد . إنها رغبة ملحة وجامحة ، لم أتمكن من تسكينها أبدا ، فأطلقت سراح صوتي الذي راح يصدح بابتهاج أشعل الحماسة في كل ما هو حولي ،حتى أن السماء أنزلت غيثا جاء في غير أوانه فاستبشرت به ، مما دفعني لاتخاذ قرار قد يجعلني أدفع ثمنا باهظا إذا ما وضعته قيد التنفيذ.

انكمشت قليلا .. فترت حماستي .. وفي محاولة لتبرير ما أنا مقدمة عليه حدثت نفسي قائلة : كل المشاهير تعرضوا للكثير من المتاعب بسبب اعتراض ذويهم على دخول هذا المجال بالذات ، لكنهم أصروا على الوصول إلى أهدافهم ونجحوا حين وضعوا أحلامهم فوق الجميع ، بإمكاني أن أمشي على خطاهم وأفعل ما فعلوه إذا ما اتبعت حلمي ومهدت له سبل النجاح.

التحقت سراً بمعهد الدراسات الموسيقية الحرة وحصلت على شهادة النجاح بامتياز، ولم يعد أمامي إلا دخول الإذاعة والتلفزيون بقدمين واثقتين.

ما أجمل البدايات ، ما أروعها وهي تدغدغ الأحلام التي توشك على التحقق .. سعادة طازجة تلامس القلب بينما أتدرب للمرة الأولى على لحن وضع خصيصا لصوتي الذي كان يرقص احتفاء بخروجه إلى العلن بعد زمن طويل من السرية والكتمان.

يا إلهي .. ليلة واحدة تفصل ما بين العدم والوجود .. سوف أصرخ بأعلى صوتي حين أولد أمام العالم كله من جديد.

أمسك الميكرفون بكلتا يدي .. الكاميرا وضوؤها الكاشف يخلخلا توازني .. بحذر ألامس القلق الرابض تحت الجلد .. وكما ترفعنا الشجاعة إلى القمم ، يطرحنا الجبن أرضا ، ومثلما تعوق العقبات سبيل الأحلام نصبح نحن العقبة أحيانا .. عقبة صلدة وبائسة في آن ، ففي بلادي ثمة مثل شائع يردده الشيخ والشاب "أن العصفور الذي يحط على مبنى الإذاعة والتلفزيون فاسد فما بالك بالفنان" ، كان ذلك المثل البغدادي الذي سطع في ذهني كالبرق هو خاتمة مجازفة أكبر من قدرتي على احتمال عواقبها ، فسرعان ما انتهت بالانسحاب.

ثمة شيء ينبثق من أعطاف الروح يروم مواساتي ..

أكتشف للمرة الأولى بهاء اللغة البكر التي راحت تتدفق بعفوية ويسر ، أتتبع مساراتها المستقيمة تارة والملتوية تارات ، أتابع انسيابها الأنيق على الورقة البيضاء، هبة أخرى تحاول الظهور للعلن ، حرمتها الموسيقا أن تطفو على السطح ، فتراجعت حتى اندثرت في الأعماق.

أن تستعيض عن الحلم بحلم بديل ، فهذا خيار آخر وحل منطقي يمكنك من تخطي حاجز الفشل والبدء من جديد ، أصبحت الكتابة ملاذا آمنا يجعلني أكثر ثباتا وأكثر التصاقا بالذات التي كانت توشك على الانهيار.

فضاء فسيح يحتويني ، جسر من الإبداع يمتد بيني وبين قارئ يتلمس وجودي ، النصوص تنشر ممهورة باسمي ، يا لها من مفارقة ، فهو

ذات الاسم الذي كاد أن يجلب العار لإخوتي ، بينما يجلب لهم الفخر كل الفخر الآن.

إنها البداية فقط ، ثلاث قصص أو أربع وربما خمس تبدو كفيلة بأن تمنحني شهادة ميلاد ، لكنها غير كافية لتجعلني راسخة في الأذهان ، كان ينبغي أن أعمل بجد وإخلاص لكن الرياح تأتي دائما بما لا تشتهي السفن ، ثمة رياح أجبرتنا على تغيير المسار إنها رياح الوضع السياسي الذي جعل البلاد تحتقن وتئن تحت وطأة الحروب والحصار الذي غير كل مظاهر الحياة .

حياة جديدة .. وطن بديل .. وحلم ينهض من جديد ...

تمنحنا الأقدار أحيانا بعض نفحات إن لم تكن على مستوى طموحاتنا فهي من ذات النسيج ، كنت قد أسلمت أمري للقدر ليأخذني أينما شاء ، وإذا به يأخذني من يدي ويلقي بي على عتبة مسرح كبير، لم يدخل ضمن نطاق أحلامي ذات يوم ، زوجي لم يمانع هذه المرة ، فالبلد هوليودي الطابع ، لا يخضع لتلك النظرة المتدنية التي تحط من قدر الفنانين ، كان يؤازرني لأنه ينظر للأمر على أنه شغف بالدرجة الأولى ووسيلة لإشغال الوقت ، بينما أجده فرصة ثمينة لتحقيق حلم قديم.

قائد الفرقة يهرول ورائي بعد توقيع عقد الانضمام لأشهر فرقة غنائية عربية ، يشد على يدي وهو يقول : أنت مكسب كبير لفرقتنا ، نحن بحاجة لصوت يجيد غناء التراث العراقي الأصيل.

أشعر بسعادة غامرة أول الأمر ، ثم يتملكني الخوف ، سوف أقف أمام الجمهور مباشرة وجها لوجه وهذا لم يكن في الحسبان ، أرفع رأسي غير مبالية بالخوف الذي يرقد بين الضلوع ، أقول بصوت هامس : لا بأس فأنا لها.

كانت نشوة زائفة لم تدم طويلا .. أنظر بتعاسة إلى ما يدور حولي، أتحسس صوتي المذبوح ، أحاول أن أفهم الدنيا وأتعلم منها لكني لا أصل إلى شيء ، فمنذ انضمامي للفرقة وعلى مدى عشرة أعوام وأنا أقف على السلم الأخير في الصف الأخير من صفوف الكورال ، نسي المايسترو وعده خلال كل تلك الأعوام ولم أحاول مرة تذكيره بذاك الوعد .. ضاع صوتي وسط عشرات الأصوات ، ولم يغن منفردا مرة قط.

مجددا أعود للكتابة ، ألملم نصوصي المتناثرة هنا وهناك بغية جمعها في كتاب يصدر من جهة رسمية تمنحني شرف الاعتراف بي ككاتبة جيدة على أقل تقدير.

لا أريد أن أتحدث طويلا عن هذا الأمر ، سأحاول اختصاره قدر الإمكان ، فالموضوع لا يقتصر على نشر الكتاب أو عدم النشر ، بل يفوق ذلك بكثير ، إذا كنت لا تمتلك علاقات حميمة ولا تملك الجرأة للدفع ، فلن يخرج إبداعك مطلقا إلى النور ، وهذا ما حدث بالضبط ،فقد انتظرت خمسة أعوام لم أر خلالها سوى إحدى قصصي في عمل تلفزيوني ينتسب إلى فلان الفلاني ككاتب سيناريو ومعد ، ولأني تعودت الرقص على السلالم فقد فّرطت بحقي في فضح ومقاضاة سارق القصة

الذي يحمل اسما كالطبل وتاريخا حافلا بسرقة جهود الغير ، لكني والحق يقال أردت أن أقوم بفعل .. أي فعل، فعل يأتي على الأقل كردة فعل ، غير أني تذرعت بالحكمة التي أمرتني بالصمت.

كان من الأجدى أن أتجاوز هذا كله وأمضي دون أن ألتفت إليه خاصة وأني تمكنت من إصدار مجموعتي القصصية الأولى على نفقتي رغم رفضي لإصدارها بهذه الطريقة من البدء ، لم يكن رفضي متعلقا بإصدار الكتاب من خلال دور النشر الخاصة وإنما يتعلق بسوء التوزيع ، فمن المؤلم حقا أن لا تجد أثرا لكتاب يحمل اسمك مهما طال بحثك في أية مكتبة من المكتبات ، بينما تجد العديد من الكتب الرديئة والهابطة والمثيرة للاشمئزاز في أفخم وأعرق المكتبات!

علي أن أتجاوز هذا أيضا بما أنني أصبحت خبيرة في الرقص على السلالم، ولكي أكون أكثر صراحة وصدقا ثمة سلالم أخرى لم أذكرها بعد ، ولا أنوي التحدث عنها الآن لأنها أصبحت من الماضي البعيد.

لا أدري لِمَ أتحدث عن كل ما مررت به الآن، وعن أي شيء أبحث تحت الرماد الذي خلفته الإخفاقات؟.

ربما أبحث عن السلام الروحي الذي افتقدته طيلة تلك الأعوام ! فقد كنت أرقب مآلي طوال الوقت .. أتطلع إلى الزمن الذي ينزلق من بين يدي بإشفاق ، أطرح السؤال تلو السؤال : ترى من الذي تسبب بهذا الضرر الذي لحق بي ، البشر أم القدر أو الاثنان معا ؟ أم أنا

المسؤول الأوحد عن كل هزائمي وهذا الفشل الذريع ، لأني تركت لهم من البداية مصيري ليتحكموا بي ؟

أيا كان الأمر، فقد انقضى ما انقضى، وضاع صوتي وإبداعي على نحو قاس ومريع، وحين وصلت إلى نهاية المطاف كنت كمن غرد خارج السرب ، حيث لا مصر رأت ولا العراق سمعت ، وحدها السلالم تعرف من أكون.

شربات

منذ متى وأنا أرفض تعليق صور الأحياء والأموات على جدران بيتي لأنها تسبب لي الفزع بمجرد النظر إلى عيني صاحب هذه الصورة أو تلك؟
آه.. تذكرت متى أقلعت عن هذه العادة، منذ رفعت صور أمي وأبي المتوفيين.

فعلت ذلك بعد قراري رفع صورة "شربات" من على حائط غرفتي، وجهدت لإخراجها من البيت كله

"شربات" فتاة أفغانية بهية الطلة حلوة القسمات، تفيض شبابا وحيوية، استطاعت عدسة مصور أجنبي أن تلتقط لها صورة تاريخية أرى أنها تضاهي لوحة "الموناليزا"، مع الفارق الكبير بين الصورتين" فالموناليزا" رسمت بفرشاة "دافنشي" وشربات التقطتها عدسة مصور بارع جعلت منها إنموذجا يحلم بتجسيده كثير من الرسامين.

كـان ذلـك المصـور الفوتـوغرافي قـد نـال جـوائز عديـدة عـن تلـك الصورة الفريدة التي التقطها لفتاة فائقة الجمال ،كانت تقف ضمن عدد كبير من الفتيات اللواتي كن يتابعنه بدهشة وهو يلتقط الصور للأطفال والشيوخ والباعة المتجولين ويصور كل مايشاهده من مناظر لم تألفها عيناه من قبل، إلى أن سقط بصره على "شربات" فمنحها الخلود من خلال لقطة عبقرية نادرة.

ثم تمر السنون ويعود المصور ذاته إلى أفغانستان باحثاعن "شربات" تلك الفتاة المشعة، صاحبة العينين المبهرتين، ليعثر عليها أخيرا من خلال بصمة العين.

كانت حينها قد فقدت ذلك الجمال البهي الذي ألهم الفنانين، داهمها الزمن برسوم أخرى في الوجه والعنق وتحت العينين ،أضحت عجوزا متغضنة ،باهتة النظرات، كسيرة الظهر لكنه لم يضيع فرصة التقاط بضعة صور لامرأة كانت، ذات زمن، أميرة للجمال .

وهكذا نشرت صورتها وهي شابة جنبا إلى جنب مع صورتها وهي عجوز ،لكن الفنانين ظلوا مخلصين لشربات الملهمة فمنحوها شبابا خالدا كما اشتهوه، لكن ما حكاية شربات ؟

ابني رسام موهوب يهوى تقليد اللوحات العالمية وقد شاء القدر أن تقع عيناه على المجلة التي نشرت صور "شربات" وحكايتها مع المصور الأمريكي، وبالطبع قام برسمها ومنحها نفس النظرة التي تميز لوحة "

الموناليزا"، تلك النظرة التي تشعرك بأنها تنظر إليك أينما كنت وأنى توجهت، تظل تمعن النظر إليك بعناد.

حتى ذلك اليوم كانت الأمور تسير على مايرام، لكننا قمنا باستئجار شقة جديدة أكبر مساحة من الشقة التي نسكنها فأوصيت ابني أن يرسم عددا من اللوحات العالمية لنزين بها جدران الصالة الكبيرة، وبالفعل قام برسم عدد من اللوحات لكبارالفنانين مثل"ديفيد روبرتس" و"ستيف هانكز" و"ساره مون"، مما جعلني أضطر لنقل لوحة "شربات " إلى غرفة نومي، لأنها لاتنسجم مع نمط اللوحات التي رسمها ولدي.

زينت اللوحة أحد جدران غرفتي العارية،فأدخلت على قلبي السرور،لكني كنت أعاني من الخوف عند النظر إلى عينيها خاصة في غياب زوجي، ولا أعرف لماذا باتت فكرة "التلبس" التي أسمع عنها وأشاهدها في الأفلام تداعبني ،بل تعبث بي ،لاسيما حين أفكر في أنها ربما تكون الآن مجرد روح هائمة تبحث عن جسد يحتويها، لأن صورتها الأخيرة كانت تدل على إنها تجاوزت السبعين، وبما أن المجلة قديمة فربما تكون صاحبة هذه الصورة قد ماتت بالفعل ،المهم أنني أقنعت نفسي بهذا الإحتمال وصرت أتحاشى النظر إلى عينيها خشية أن تتلبسني، وحتى أتخلص من هذا الهاجس المفزع قررت أن أتخلص من هذه الصورة نهائيا، فطلبت من ابني بيعها وقد تم لي ما أردت .

تخلصت من لوحة "شربات" التي أحببتها كثيرا وكنت أفتخر بابني وأثني عليه لأنه استطاع أن يرسمها بهذه البراعة التي تصل إلى حد التطابق مع الصورة الأصلية.

لا أنكر بأنني ترددت كثيرا قبل أن أتخذ قرار إقصاء "شربات"، لكنني صرت أكثر ارتياحا بعد أن تخلصت من هاجس الخوف الذي كان يتملكني ،وليس هذا فحسب، بل قمت برفع جميع الصور الشخصية والبورتريهات التي رسمها ابني كي أنعم بالسعادة أو براحة البال.

لا أعرف كيف جذبتني إليها مساء ليلة باردة ،كنت أتدثر تحت غطاء سميك لأشعر بالدفء ،درجة حرارتي مرتفعة بعض الشيء، وجسدي يعاني من ارتعاشة خفيفة.

صوبت نظري إلى عينيها فوجدتها تتطلع إلي بنظرة حادة ،أشحت بوجهي لكني وجدت نفسي مدفوعة للنظر صوب وجهها الذي يحمل فتنة النساء اللواتي كن يعشن في أربعينيات القرن العشرين ..تفرست في وجهها الشاحب فبدا لي أن ابنتي الصغرى تشبه جدتها إلى حد كبير، وهذا ما لم ألحظه من قبل.

امرأة جميلة تتسم بأنفة الأثرياء، عيناها الكحيلتان تتمتعان بحدة عيني صقر، لاحظت ذلك وأنا أتطلع إليهما، فهما تشبهان إلى حد كبير عيني زوجي، ولاحظت أيضا أنها تحدق بي بنفس الصرامة التي يحدق بها

حين يكون غاضبا، لكن ماسبب غضبها وما الذي تريده مني هذه المرأة المتوفية منذ ستين عاما، ومن ذا الذي وضع صورتها في غرفتي دون مشورتي؟

كنت مستاءة جدا، عازمة على إخراج هذه الصورة خارج نطاق حجرتي ،بل وإلقائها خارج البيت كله كما فعلت مع لوحة "شربات"، لكنني كنت عاجزة عن النهوض ،أقاوم شعورا بات يربكني.

ليتني لم أفرط بشربات ،لو أنني لم أتخل عن تلك الفتاة الوديعة المسالمة، لما حلت محلها هذه المرأة الصارمة ..المتشبثة بالحياة .

الآن أستطيع أن أخمن من الذي زرع هذه الصورة على الجدار المقابل لسرير نومي، إنه زوجي ..الطفل الذي لم يشبع من حضن أمه، ولا يمكنه تذكر ملامحها إلا من خلال هذه الصورة لأنها ماتت وهو لما يزل طفلا لايتجاوز السادسة من العمر،وهذه الصورة هي آخر صورة التقطت لها قبل وفاتها بعدة شهور.

لم أنعم بالراحة في تلك الليلة الطويلة، تنازعتني الكوابيس والأحلام التي لا أتذكر منها إلا شيئا واحدا فقط:

كنت أحدق في عيني المرأة التي كانت ترمقني بشراسة أزعجتني ،مما دفعني إلى الرد عليها بالطريقة ذاتها، أظن إن درجة حرارتي ارتفعت حينها إلى حد إحساسي أني بت أتصبب عرقا، وبينما كنت أصغي إلى لهاثي

المتقطع وأجاهد من أجل إزاحة الغطاء عن جسدي المحموم، رأيت دخانا أزرق ينبثق من كل فتحة من فتحات رأسها الصغير .. من عينيها ومنخريها ..من فمها وأذنيها ،انطلق الدخان كثيفا ليسبح في فضاء الغرفة ثم يتماوج صعودا ونزولا في حركة حلزونية أشبه برقصة شيطانية يصدر عنها هسيسا مرعبا أسقطني في جب الخوف.

رفضت الاستسلام .. تابعت المشهد بصمت ،كان الدخان يتشكل وينهدم.. ينفصم ويلتحم متخذا في النهاية هيئة جسد غير مكتمل، يحمل ملامح المرأة التي في الصورة.

نظرت إلي شذرا ثم انقضت علي كما الوحش، فاشتبكت معها في معركة أنا الخاسرة فيها وفقا لموازين القوى، كانت تتمتع بطاقة خارقة رغم عجزها عن الاكتمال ،وأنا أعاني من قصور في التنفس وانعدام التوازن وضعف في الأداء.

لا أعرف ما الذي حدث، ربما انتصرت علي، وربما أكون قد هزمتها رغم ضعفي، لكنني على يقين بأن شيئا ما حدث جعلني أختلف عما كنت عليه في السابق.

تصاعدت حدة الخلافات مع زوجي خلال الأيام التالية ،لا أعرف مالذي دهاه، رغم أني كرست له جل وقتي ،وتفانيت في خدمته، حتى أنني لم أعد أمارس هواياتي ،وما اهتممت بأحد سواه،أما أولادي فلقد

فتر اهتمامي بهم، لأني حشدت مشاعري كلها نحوه .. صرت أحنو عليه وأرعاه بقلب أم رؤوم اعتزلت الدنيا لتحيا من أجله.

كنت أوبخه أحيانا وأنعته بالطفل لأنه يرفض رفع صورة والدته من على حائط غرفتي، فيصرخ في وجهي .. أنت مريضة تخافين الأموات وكأنك ستعيشين أبدا، اتق الله إنها أمي، لماذا تريدين أن تحرميني منها،إنها صورة .. مجرد صورة فدعيها بسلام.

هي ليست صورة .. إنها كائن يسكنني .. كائن لا أعرف من أين أتى، لكنه غريم أقض مضجعي وعكر صفو أيامي، معاركي معه ما توقفت لحظة واحدة، لأنه ناضل من أجل إزاحتي وطردي من جسدي الذي يريد أن يستحوذ عليه بالكامل، وأنا أستبسلت كي أسترجع حقي في امتلاك هذا الجسد الذي يخصني وحدي حتى وهو تحت طائلة الاغتصاب.

النتيجة أنني خسرت الحرب كلها ،بعد أن حققت نجاحات محدودة في المعارك المتفرقة مع متلبستي ،خسرت الحرب في الجبهة الرئيسية مع زوجي.

لقد قرر هجري منذ تخليت له عن سرير نومي، وامتنعت عن استئناف حياتي الزوجية معه البتة.

دللّول

لا شيء يدل على وجودي غيرشهيق أعارتني إياه الأيام، وظل أتعقبه لا لشيء سوى أنه ظلي، ودليلي على أن الحياة لا تزال على قيد الحياة.

تائهة أتخبط في الفراغ كربّان فقد بوصلته بعد انقطاع سمفونية البهجة التي كانت تعزفها أوركسترا الأيدي الناعمة، منذ أشرقت شمس وجودهم في حياتي.

أوصد أبوابي في وجه الشمس وستائر قلبي مسدلة، أحث الوقت على الانزلاق تحت عجلات العمر، فما حاجتي للوقت أو للعمر، بعد رحيل أولئك الذين واصلت معهم السير في دروب الحياة ومنعطفاتها، أولئك المتأملون الحالمون بمستقبل أكثر رفاهية مما وهبتهم إياه، لم تعد تربطني بهم سوى بضع كلمات تكرر ذاتها عبر الهاتف كلما لفحتهم حرارة شوق يتوهج في لحظة ويخبو في اللحظة التي تليها، وبضع دولارات

تصلني بانتظام كل ثلاثة أشهر، هذا ما أصبحت عليه بعد هذا العمر الطويل.

تمضي الأيام مثقلة بالسهد وأنا أتأبط الوحدة، بينما تحملني هي على نصل حاد.. أرقب الماضي، ينفلت الحاضر مني، والمستقبل لا يعلمه إلا الله.

ما زلت أتحسس مواضع وجودهم في القلب.. أخمد بثلج الصبر نار أشواقي.. أرعى براعم الآمال وألم الشّمل في حلم يراودني كل ليلة.

دللّول : ترنيمة عراقية حزينة ترددها الأم ،الغرض منها حث الطفل على النوم.

رسائل

نوبة الفزع تعاودني للّيلة الثالثة على التوالي .. هجرتني الأحلام منذ زمن ، لماذا تعود الآن حاملة معها كل هذا الأرق ومن أجل مَنْ هذه المرة ؟!
قطرات الماء لا تبلل جفاف حلقي وحزم الضوء لا تهدأ روعي .. ثمة من يستغيث "ساعديني " !

في فترة مزدهرة من الحياة كانت أحلامي عبارة عن رسائل تحثني على ممارسة عمل ساعي البريد ، فأقوم طائعة بتوصيل تلك الرسائل إلى أناس لا يثقون بأحلامهم فيتجاهلونها عن عمد أو دونما قصد، لكنهم ويا للغرابة يثقون بأحلامي ثقة الغريق بيد يتمنى أن تنجح في إنقاذه من خطر أكيد.

كنت ولا أزال غير ملّمة بحقيقة ما يحدث ، ولا أعرف كيف يتسنى لي معرفة الجانب الخفي من حياة الآخرين ، ومَن يوكل لي مهمة تحذيرهم من مكائد تحاك لهم أو مخاطر توشك على الحدوث ، لكن ما أنا أكيدة

منه هو قدرتي على فك رموز أي حلم، وهذا ما يجعل مهمتي سهلة ومكللة بالنجاح.

آخر الرسائل كانت هي الأغرب والأصعب بالنسبة لي ، فهي تخص زميلة لا أعرف عن حياتها شيئا على الإطلاق ، لأنها حرصت من البداية أن تضع حاجزا بيني وبينها لأسباب أجهلها ، بينما حرصتُ أن أمدّ جسورا للصداقة وسعيت مرة تلو أخرى لتحطيم ذلك الحاجز دون جدوى ، وحتى يتعقد ما هو معقد من الأساس ، اضطرتني بسبب مشكلة مهنية طارئة إلى إقامة حاجز كحاجزها وربما أشد ، لكنني وعلى الرغم من ذلك كله قمت بما ينبغي علّي القيام به على الفور، بينما اتخذت هي التدابير اللازمة بأقصى سرعة ، وهذا ما أمّن وضعها و مكنها من احباط خطة طليقها للاستيلاء على المنزل الذي تقيم فيه بصفتها حاضنة.

كان يرتب أمرا لو قدر له أن يتم لتعرضت لأمرين ، أولهما أن تقع تحت طائلة القانون وثانيهما أن تغدو بين ليلة وضحاها منبوذة وبلا مأوى، ناهيك عن العنف الجسدي الذي كانت ستتعرض له إذا ما تم له ذلك، هذا ما رأيته في المنام وما أكدته هي لي بعد نجاحها في إفشال مخططاته.

الوقت يتطاير كالدخان .. عقارب الساعة تثير حنقي .. جفاني النوم وجفوته ، عادة ما يحل السهاد بحلول القلق الاضطراب ، كيف لا

ونداء الاستغاثة لا ينفك يرن في أذني وكلمة "ساعديني" تعبئ فضائي وتملأ الكون.

أحاول أن أستعيد توازني لأتمكن من جمع الصور وفك رموز الحلم .. الحقيقة تصدمني ، حيث لا صور .. لا رموز .. لا حلم !!

صوت مجرد صوت ولا شيء غير الصوت .. كيف لي أن أعرف صاحبه وأنا أجهل مصدره وسبب استغاثته، وأية عبقرية ستتمخض عن كائن ادعى البلادة حتى أتقنها.

أستعرض وجوه أقرباء وأصدقاء لم أرهم منذ زمن طويل .. أستدعي أصواتهم .. تأتيني صاخبة مليئة بالبهجة والحبور .. يعاودني التوتر، أصواتهم لا تشبه الصوت الذي يملأ كياني ، إنه حزين ومرتعب ويبدو كمن لا صلة له بهذه الحياة.

أستاء من بلادتي وهذا البطء.. ماذا عساي أن أفعل وأنا أقف ككائن أعزل فقد سلاحه ذات انهزام، قد لا يحتمل الأمر هدر المزيد من الوقت ، دافع غريب يحثني على فعل شيء .. أي شيء لحسم هذا الموقف.

شعور بالذنب بدأ يعتريني وأنا أحاول البحث عن وسيلة أخرى تمكنني من التعرف على هوية صاحب الصوت الذي ينتظر مني الدعم والمساعدة ، الشعور أخذ يكبر ويتعاظم حتى وقف أمامي وجها لوجه في هيئة تماثلني ، قال بصوت آمر يصعب تجاهله : كفي عن ممارسة هذه

اللعبة الخطرة، الحياة تمضي كالقطار دون أن تلتفت إلى من تخلف عن الرحلة ، ثم أن الرحلة مشروطة منذ البدء باجتياز كل الاختبارات مهما بلغت درجة صعوبتها ، لماذا الوقوف إذاً عند حدود الأزمة وخلق أزمة ؟.

هذه رسالة أخرى ، صريحة ومباشرة ..

لا شيء يعمق الصلة بالذات غير هذه المواجهة ،عليّ أن أتّبع الإرشادات لأني سئمت من المراوغة.

لم يكن الصوت غريبا عني .. وقد عرفته منذ الصرخة الأولى وتغاضيت عنه ، لطالما سمعته يصرخ ويستجير مطالبا بفتح منافذ النور والعودة إلى الحياة ، ولكم أهملته لكأنني لم أسمعه من الأساس، لكن الرسالة وصلت بقوة هذه المرة ، وصلت تباركها روح الحياة.

صناديق

رغم أني أحمل بطاقة الرقم القومي وأحفظ عن ظهر قلب رقم اللجنة الفرعية ورقم الكشوف الانتخابية الخاصة بي، إلا أنني التزمت الصمت أثناء وقوفي في طابور النساء الطويل في يوم ارتفعت فيه درجة الحرارة إلى أعلى مستوياتها، كما ارتفعت أصوات النساء اللواتي رحن يجاهرن باسم مرشحهن غير آبهات بأصوات المراقبين التي كانت تزجرهن بين الحين والحين وتمنعهن من التحدث، خشية أن ترتفع حدة الجدل، مما يؤدي إلى صدام بين الناخبات .

التزمت الصمت ولم أنبس بكلمة واحدة، ليس لأني كنت حريصة على اتباع التعليمات، أو ليس لدي رغبة لكيل الشتائم لمرشح توقعت أنه سيدخل البلاد في مرحلة مظلمة لا يعلمها إلا الله، وهذا ما حدث بالفعل، بل لأني كنت أخشى أن تكتشف إحداهن لكنتي التي لم أنجح أن أجعلها مصرية مائة بالمئة مهما حاولت، فأنا بالكاد أتمكن من ضبط

بعض الجمل القصيرة وإذا ما أسهبت في الحديث يبادر الطرف الثاني على الفور: "أنت منين؟"

وبما أني لا أتحدث المصرية كما ينبغي فقد اضطررت لعدم الرد على السؤال الذي وجهته لي المرأة التي تقف خلفي، قالت لي بلكنة قروية "حترشحي مين"، لم أرد عليها رغم أنها كررت السؤال أكثر من مرة حتى ظنت أنني صماء، لتظن بي الظنون أليس هذا أفضل من أن أتلقى صفعة على وجهي أو أن تقول لي إحداهن "لما أنت مش مصرية حاشرة نفسك في الانتخابات ليه؟".

المهم أني أدليت بصوتي.. وبعد أن وضعت الورقة في الصندوق قدمت لي إحدى الفتيات زجاجة حبر، وطلبت مني أن أضع خنصري فيها، لكني وضعت سبابتي كلها وكنت أتمنى أن أضع كل أصابعي، حتى أتباهى أمام الناس أجمع وأؤكد لهم أنني مارست حقي ولو لمرة واحدة في الحياة.

نزلت السلالم وروح صبية ترافقني.. كنت سعيدة، أشعر بطاقة هائلة تنبعث مني، وهذا ما استشعره ابني حين رآني حتى أنه سألني عن سبب تلك الحيوية التي أتمتع بها بينما الجو العام يدعو للخمول، قلت له إني سعيدة بما فعلت وحكيت له عن تجربة قديمة مع الحرية التي عشنا نحلم بها.

ففي إحدى السنوات البعيدة، أعلنت بلادي عن استفتاء شعبي حظي بإقبال جماهيري كبير، وقد ساهم التليفزيون العراقي بإنجاح تلك التجربة التي وصفت بالديمقراطية بأن عرض بعض المشاهد التي كانت تؤكد خضوع ذلك الاستفتاء للرقابة الدولية، مما دفعني وصديقتي إلى التصميم على استخدام حقنا بقول كلمة لا، ووضعنا نصب أعيننا كل الاحتمالات التي قد توقعنا في فخ التساؤلات.. تساؤلات؟ وهل سيقف الأمر عند حد التساؤلات.. أم أنا كنا سنذهب وراء الشمس كما هو معروف.

بالنسبة لي لم أبخل على نفسي ببعض المشاهد التي أجيد إخراجها، فشاهدت نفسي معلقة في مروحة سقفية وقطرات الدم تتساقط على أرضية قاعة التعذيب، بينما كنت أصرخ وأشتم سيادته بأقبح الشتائم، وفي مشهد آخر رأيت أحدهم يقتلع أظافري بوحشية مما دفعني لاقتلاع عينيه في حلم لم يخل من الحبكة الدرامية، لكن هذا لم يثنيني عن قراري فذهبت مع صديقتي يسبقنا إصرارنا ورغبتنا في التغيير.

كانت اللجنة في إحدى المدارس القريبة من محل سكننا، والحقيقة أني لم أشاهد أي مظهر من المظاهر التي شاهدتها في التلفاز.

ليس ثمة كاميرات أو لجان دولية، يا له من موقف صعب، مهلا إياكم أن تظنوا أنني قررت قول "نعم"، بينما كلمة "لا" تحثني للذهاب وراء الشمس.. لا أبدا فقد تقدمت وصديقتي نحو مكتب يتوسط ساحة المدرسة ابتسم الرجل، وهم يقدم لنا الأوراق فاستبشرنا خيرا، مددت يدي

لآخذ الورقة فيما كانت عيناي تبحثان عن الكابينة التي ستمنحني الطمأنينة أثناء كتابتي لكلمة لا، لكني انتبهت إلى أن الورقة لا تنسحب من يد الرجل لأنه كان يتشبث بها بعناد.

نظرت إليه بدهشة، فوضع الورقة على المنضدة وقام بتثبيتها بإحدى يديه مشيرا بسبابة يده الأخرى إلى المربع الذي يضم كلمة "نعم"، "وقال بصوت آمر "هنا"، وقد فعل الشيء ذاته مع صديقتي وباءت المحاولة بالفشل الذريع، من أجل هذا صممت هذه المرة على المشاركة في الانتخابات لعلي أحدث فارقا في النتائج، إلا أني أصبت كما أصيب الكثير من أبناء الوطن بخيبة أمل حين أُعلنت نتائج الانتخابات، ودخلنا بالفعل في بحر الظلمات، لكن قدر لي بعد عام أن أصرخ بأعلى صوتي "ارحل" كنت حينها متوجهة مع أحفادي وأمهم إلى ميدان التحرير.

وما إن مررنا بالقرب من تجمهر غفير كان يهتف ويقرع الطبول حتى أخرجت رأسي، وأطلقت صرخة خرج معها كل ما بي من غل، فالتفت إلي الجمع كله الذي سمع صرختي رغم كل تلك الضوضاء .

قال لي حفيدي بتعجب "عملتي كده إزاي"، فابتسمت بينما دموعي كانت تسيل على وجهي ويدي تشير إلى صدري.. من هنا خرجت أعظم صرخة في التاريخ.. تاريخي!

نضال "أبو نضال"

أي وجه هذا الذي استوطن أحلامي ودعاني إلى الخروج عن مسار حددته لي الأيام.. أية غواية دفعتني للبحث عن نشوة بلهاء أورثتني لعنة الانشطار.

بين ماض وحاضر أمرغ أنفي لألتقط نواة حلم أحمق قادني إلى حافة الانهيار.

أعوامي التي تجاوزت الثلاثين آنذاك، ما هي إلا وتر مشدود بذاكرة طيف أحرق شرب كأس المرارة حتى الثمالة وأقسم أن يشاركني إياه.

منذ الطفولة وعناقيد الأحلام تبعثر نواتها في دروب الذاكرة ومنعطفاتها، فتنمو صورا لا أعرف من أين أتت وكيف تشكلت، إلا أنها تشمخ أمامي في الصحو والمنام.. تهمس بكلمات كالأحجيات، ونظرا لصغر سني كنت أتجاهلها حيث لا سبيل لإيجاد حل يفك لغز تلك الكلمات.

ثم بـدأت الصـلة تتعمـق مـا بيـني وبـين الصـور، حـتى أن ذاكـرتي أخذت تمدني بالمزيد منها، فانتفخت عروق واستغاثت نفس أجهل صلتها بي ومن تكون.

أنظر إلى أقراني بعين حاسدة أحيانا، أتأمل شعاع أعينهم ومسراتهم البكر، كم من الأعوام يلزمني لأتطهر من القيح الذي أصاب روحي التواقة إلى الحرية وإلى التحرر مـن أغـلال حلـم لم يـدعني أهنـأ أبـدا براحـة البـال، ويوم قررت الخروج من فوهة الصمت التي ابتلعتني، أعلنت التمرد على الذكريات المستعارة.. على الأحلام، وعلى نفسي الواقعة تحت تأثير تلك الأحلام.

قبل أن أبدأ رحلة السعي وراء مجهول أقض مضجعي وعكر صفو أيامي لأعوام، كان لا بد أن أطرق أبوابا وأكشف أمرا ترددت كثيرا في الكشف عنه، لأنه مربك وغامض.. معقد وشائك، من أجل ذلك، قررت أن أقتحم غرفة أبي وأقف أمامه عاريا إلا من روحي التي تنشد السلام.

ـ هل تعرف شخصا يدعى "أبو نضال".

ـ ومن يكون هذا (الأبو) نضال؟

ـ لا أعرف!

ـ معنى هذا أنك تسألني عن شخص مجهول!

ـ نعم يا أبي.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني أنني في حيرة من أمري، وأظن أنه قد آن الأوان لأطلعك على سر حبسته بين أضلعي لسنوات، ولم أطلع عليه أحدا، ولا أدري لمَ أخفيته عنك، لكنني بالتأكيد كنت أهاب الوقوف أمامه وجها لوجه كما أفعل الآن!

ـ أنا لا أفهمك يا ولدي ولا أعرف عمَّ تتحدث!

ـ سأجيبك الآن عن تساؤلات أرقتك في الماضي كما أرقتني، لماذا لا أندمج مع الذين هم في مثل سني واتهمهم بالتفاهة وعدم الاتزان؟ لماذا أبدو كهلا وأنا في أول العمر؟ لماذا أتلكأ وأتأتئ حين يسألني أحدهم عن اسمي؟ لماذا لا ألجأ إلى حضن أمي إذا ما وبِّخت أو اعتدى علي أحدهم بالضرب، لماذا ولماذا، أتعرف لماذا يا أبي؟

في العاشرة من عمري راودتني أحلام لم أكن أوليها اهتماما مع أنها تكرار لما حلمت به من قبل، وشيئا فشيئا أصبحت الأحلام أشبه بالكوابيس، حتى أنني كرهت النوم خشية السقوط في فخ الرعب الذي نصبه لي رجل كهل، لا أعرف حقيقة أمره أو الصلة التي تربطه بي.

ـ ومن يكون هذا الرجل؟

ـ إنه الشخص الذي أسألك عنه يا أبي، إنه "أبو نضال".

ـ أكمل يا ولدي فأنا لم أفهم بعد!

ـ توالت الأحلام.. ازداد خوفي حين طغى حضوره على حضوري فشمل يقظتي والمنام، وصرت أراه في مخيلتي عن طريق شريط ذكريات لا أعرف كيف اقتحم دماغي وما مصدره.

أنا لا أعرف هذا الرجل، لكنني أشعر حياله بالانتماء، إنه لغز محير أتعبني، وقد آن الأوان لأقتحم حياته كما اقتحم حياتي.

ـ وكيف ستقتحم حياة من تجهله؟

ـ أنا أعرف كل تفاصيل حياته، لكني أجهل سبب تطفله عليّ.

ـ هل لديك عنوانه بالفعل؟

ـ نعم.. شريط الذكريات المقحم على ذاكرتي مسجل عليه عنوانه وذكرياته وكل ما يتعلق به.

ـ لماذا لا تذهب إليه الآن لتستطلع الأمر؟

ـ سأفعل يا أبي، لكن ليس الآن.

ـ وما الذي يمنعك أن تذهب إليه في الحال؟

ـ إنه يسكن مدينة أخرى.

ـ أية مدينة؟

ـ إنها مدينة ساحلية تبعد عشرات الكيلومترات عنا، أما بيته فيقع على الجانب الآخر من البحر بالقرب من بقالة تدعى بقالة أيلول.

ـ ومتى ستذهب؟

ـ غدا إن شاء الله.

ـ سآتي معك؟

ـ لا يا أبي.. أريد أن أذهب بمفردي.

أطلت المدينة بألقها وسحرها الآسر.. البحر يناديني كما لو كنت خليله..لبّيت النداء على الفور وأصخت السمع لوشوشاته الصاخبة

المرحبة، أكاد أجزم أن للبحر لغة لا يفهمها إلا المتيمون بما أبدعته يد الخالق جلت قدرته.

شعرت برغبة شديدة تدفعني للدخول إلى أحد المطاعم المطلة على البحر، رغم أني لم أكن جائعا، وبتلقائية شديدة أمسكت قائمة المأكولات ثم ذهبت فورا إلى القسم الخاص بالأسماك البحرية، ودون أدنى تردد قمت بطلب نوع غريب من سمك لم أتذوقه يوما ولا أظن أنني رأيته في مدينتي يوما ما.

أرنو إلى البحر وأشرعة المراكب القصية.. صوت أم كلثوم يتموج داخل الروح وهي تردد "الموجة بتجري ورا الموجة عايزة تطولها".. النوارس عنفوان يتحدى الشمس، والشاطئ مهرجان فرح دائم.

تأملت المدينة المفعمة بالحياة، انتابني شعور خفي مبهج، هذه المدينة أعرفها حق المعرفة، وليس أسهل من أن أصف شوارعها ودروبها وأنا مغمض العينين.

وما بين الدهشة والتأمل سقط بصري سهوا على وجه رجل كهل كان يسير بمحاذاة المطعم.. دفعت الحساب على الفور وركضت في إثره صائحا:

ـ عدنان.. عدنان.

التفت الرجل صوبي، ثم قال بدهشة:

ـ هل تعرفني؟

ـ نعم.. أنت عدنان ابن الحاج إسماعيل.. أليس كذلك؟

ـ نعم.. أنا هو، ولكن.. من أنت؟

ـ أنا مروان ابن فادي الدرزي.. ألا تعرفني؟

ـ لا.

ـ كيف لا.. مادمت أعرفك فلا بد أن تعرفني!

ـ لكني لا أعرفك ولم تسبق لي رؤيتك، هل أنت من سكان هذه المدينة؟

ـ لا.

ـ اعذرني إذن أنا لا أعرفك بالفعل.

مط الرجل شفتيه ومططت شفتي أيضا، ثم انسحبت بهدوء.

جاءني صوت الرجل من بعيد:

ـ كيف عرفت اسمي واسم أبي؟

لم ألتفت إليه.. واصلت المسير متجها إلى الحي الذي يسكنه "أبو نضال".

هذا هو الشارع.. وهذه هي بقالة أيلول.

قبل أن أقترب من البيت، تعال وجيب قلبي، وشعرت بدوار ورغبة في التقيؤ، لكني اعتزمت التماسك وقررت قرع الباب واقتحام المجهول الذي ينتظرني خلفه.

لا امتحان أصعب من ذلك الامتحان.. ولا صدمة أقوى من تلك التي تلقيتها حال دخولي بيتا لم أشعر للحظة أني غريب عنه أو عن ساكنيه.

"هنا يكمن اللغز التواق للكشف عن كنهه.. هنا يرقد ظل الحقيقة التي اندلعت كما الحريق في مواجهة الظلمة التي توارت بين خيوطها لأعوام".

كانوا ثلاثة إخوة، أصغرهم يكبرني بعشرة أعوام على أقل تقدير.. قدمت نفسي إليهم كغريب، وسميتهم بأسمائهم كقريب.

وأمام نظرات الدهشة والتساؤلات التي تشع من أعين الجميع، قررت التخلي عن بشاشتي المصطنعة وبادرت برمي السؤال:

ـ أين أبو نضال ومن يكون؟

ـ إنه والدنا رحمه الله.

ـ رحمه الله! إنه ميت إذن!

ـ نعم.

ـ كيف مات ومتى؟

ـ مات مقتولا منذ ثلاثين عاما.

ارتعدت أوصالي، وفقدت السيطرة على انفعالاتي فسقطت مغشيا علّي.

وما بين شد وجذب في الحديث الذي أعقب حالة الاسترخاء التي أعادت إلي بعض توازني، أدركت حقيقة ما ألم بي طوال تلك السنوات، فأخبرتهم بكل التفاصيل التي عانيت منها، لكنهم بكوا وأبكوني.

لم يكن وقع المفاجأة بالنسبة لهم كما كان بالنسبة لي، لأنهم شعروا بالراحة حين أدركوا أن روح والدهم قد حلت بي، أما أنا فقد نفرت من هذه الفكرة وقررت مغادرة البيت بأسرع وقت.

توقفت مسيرة النضال التي قادها "أبو نضال" منذ ولادتي وإلى الآن.. انتهت لعبة المطاردة والرغبة في طمس هويتي فور خروجي من بيته الذي كان يلتمس بقائي، لكنني خرجت دون وعد مني بلقاء.

لا شك أني تفاعلت مع أولاده لدرجة الشعور بعاطفة أبوة جياشة إزاء كل فرد منهم، لكنني كنت أصارع هذا الشعور بكل ما أوتيت من قوة حتى لا أقع في أسر والدهم مدى الحياة.

غادرتهم وأنا أقاوم لوعة أدهشتني، ومضيت عازما على النسيان.

لم أفكر في التواصل معهم يوما حتى عن طريق التليفون وقد صارحتهم بما يدور في خلدي، لأنني قررت أن أطهر نفسي من آثار الماضي وأن أعيش حياتي كما يحلو لي، أحب.. أتزوج.. أنجب.. أبني حاضرا لا يملك قيادة أحد غيري.. أصنع ماضيا يخصني وحدي، هكذا قررت وهذا ما عقدت عليه العزم وكنت واثقا من النجاح.

بعد عودتي من رحلة البحث عن المجهول بأيام، تخليت عن اسمي واستبدلته بكنية "أبو نضال" ثم طلبت من الجميع أن ينادونني به، وما زلت أحمل هذا الاسم، رغم أنني لم أنجب "نضال" ولا غير "نضال" إلى الآن.

مرايا الغياب

منذ فترة وأنا أعجز عن التقدم خطوة واحدة إلى الأمام، بينما أتحرك إلى الخلف بخفة ورشاقة.

كل شيء حولي أضحى في تراجع، جدول الأعمال.. رصيد المال.. قائمة الأصدقاء، والعلاقة بيني وبين الأبناء أصابها الفتور، لأني أصررت على السير في الاتجاه المضاد.

أفكاري المشعثة نسيج عنكبوتي واهن اعتمر قبعة اليأس وتمادى في ملكوت عتمة تسربت إلى نفسي لحظة أظلمت السماء.

الشوق.. الحرمان، وطيفه الرابض في الأحلام، عناقيد وجع تجثم بكل ثقلها فوق صدري المسكون بلوعة الفقد ومرارة الحياة.

الوحدة مرآة تعكس رغبتي في ممارسة الغياب، العزلة جدران تحجب وجه الحياة الكئيب، لا شيء سوى تداعيات الفجيعة والذكريات تضاعف المأساة، أرنو إلى الواقع بعينين متحجرتين، لا الحاضر يمنحني السكينة ولا المستقبل يعدني بالأمان.

ما زلت أبكي عمره المسكوب على إسفنجة الحياة التي ابتلعت سنواته وذرته محض ذكرى في الأذهان، وما بين أنين وعويل أجتر ذكريات من استنشقت أنفاسه وغفوت على إيقاع نبضه أعواما تلو أعوام.

على باب حجرتي تقرع أجراس الخطر محذرة إياي من مغبة المكوث طويلا تحت غيمة الحزن، لكني كما الهارب من وعيه، أمارس الفرار من القادم المجهول.

المصير المحتوم، عاصفة هوجاء تقتلع بذور الثقة في جدوى الكفاح الممض من أجل حصاد ستذروه الرياح حتما ذات يوم، دروب الحياة الوعرة، ما هي إلا طرق ممهدة تفضي إلى نهاية المطاف سواء توقفنا أو واصلنا المسير، فما الجدوى من التحذير إذن! إذا ما أطبق المصير على صدر الأحلام المعجونة بالأمنيات.

على شفير الهاوية أقف.. أرنو إلى الحاضر بإشفاق، الخوف يتعقبني، ينشب أظافره في جسد سكينة غادرتني، لا مجد لأيامي الواجفة، المترنحة بين ذهاب وإياب.

هناك.. على الجانب الآخر من الوعي أغص بأحلام اشتريتها بحفنة أرق أدمى مقلتي، ثمة من يقرع بلا هوادة أبواب متاهتي، يدعوني إلى الخروج من المرايا لاستنشاق الحياة، أنصاع للأمر وأتقدم كالحمقى لأسبق ظلي.

وكما الحالم بمتعة تفقده الصواب أجلس خلف مقود ما لأهب نفسي للريح.. للمغيب.. يتوارى الأفق فجأة.. العربة ترتد بسرعة جنونية

إلى الوراء، مثيرة الفزع في نفوس الخلق.. أدوس على الكابح بتوسل، لا يعمل!!

يعانق لهاثي لهاث العابرين والأبواق الهادرة كسياط تجلدني، أعبر فوق المجزرة التي خلفتها حماقتي، إنهم أطفال بعمر الزهور.. يا إلهي.. إنهم أبنائي..

آه لو تعيرني الحكمة بعض أسرارها لما تركت نفسي تغرق في العدم، رغم أني ما زلت على قيد الحياة.. آه لو تمنحني الأسرار حكمتها، لما تواريت خلف أسوار الصمت أعانق ما فات وأتنصل من واقع يحمل بعض دمي، بل كل دمي، إنهم يقفون بمحاذاة الريح التي تحاول أن تقتلعني، يلوحون بأيديهم الصغيرة يدعونني للخروج من المرايا والعودة إلى حياة أسكرتني بمر الفجيعة وتركتني لرياح اليأس تعصف بي كما تشاء.

وحيث لا حكمة ولا أمل في غد مشنوق، هذه أنا الآن، أضيق بما تبقى لدي من وعي، أنثر الصور على الجدران مرتلة ترانيم الأحزان، يصفعني الألم كلما دعتني الحياة، فأعدو وأعدو خلف الهذيان، منتشية بممارسة الغياب.



رحيق الألم

أبحـر إليـه بأشـرعة ممزقـة لكنهـا قـادرة علـى تحـدي الأنـواء.. أعبـر إلـى ضـفته النائيـة فتتبـدى لـي كمرفأ لـم تلوثـه النفايـات.. أقـتحم منفـاه رغمـا عنـه لألـوذ بقلبـه المسكون بالغربة غير طامعة بامتلاك ركن فيه.

أفتح بابا يفضي إليه، يبتلعني عالمه الموشوم بالأسى فأمكث هناك زمنا، أرتشف عصارة همومه التي لا تخرج عن نطاق همومي، فالأرض التي حملتني حملته، والهم الذي طالني طاله، إنه حقل أوجاع زرعت نفسي فيه فزادني وجعا.

شاهقة قمة هذا الرجل، لست أدري لِمَ لَمْ أتسلق ذات يوم بنيانه المتنامي، رغم أني أرهقت بصري بقراءات شتى دون أن أحظى بمؤلف ينتسب إليه.

إنها صديقتي! هي التي أشعلت الجذوة دون أن تدري، أهدتني رجلا من ورق فنفختُ الروح فيه حتى صار ملاذا.

كنت بحاجة إلى جليس يؤنس وحدتي ويبدد وحشتي فاقترحته ُ علي، ثم ذكرت لي بعض منجزاته ورسمت لي دون أن تدري طريقا سلكته مرارا في غمرة اشتياقي.

تحدثتْ عنه بانبهار أثار فضولي فتلهفت لسماع المزيد، كان معظم ما قالته متوائما مع طبيعته كشاعر، لكن شيئا ما في هذا الرجل بدا لي مختلفا عمن سواه، وهذا ما جذبني بشدة إليه.

أربكتني التماعة عينيها وحمرة كست وجنتيها كلما أثنت عليه، وزادتني انفعالا تلك الابتسامة المطعّمة بنشوة تتخطى حدود الإعجاب بكثير، لكني أحكمت لجام لساني الذي كان يستعد لإلقاء سؤال عن طبيعة علاقتها به، رغم أنها قالت لي في مستهل حديثها إنه صديق قديم وحميم لزوجها.

بدا لي من خلال حديثها أنه رجل استثنائي، جاء إلى عالمنا في التوقيت الخاطئ، تحدثت عن أسلوبه الراقي بالتعامل مع كل شيء، قالت إنه أشبه بشخصية ابتدعها خيال سام.. شخصية لا تنتمي إلى عالمنا من قريب أو بعيد، إنه مغرم بكل ما يحيط به.. يرى الحياة بمنظار لا يملكه سواه.. يتعامل مع الملعقة والشوكة والسكينة ومع سائر أدواته بمودة ورفق، لكأنها كائنات تتنفس، يحنو على النبات ويلقي عليه التحية كلما مر بجواره.. يا ويلتي.. ما باله وهو يتعامل مع البشر؟ وأنا قد سئمت أولئك الذين يلقون في وجهي نفاياتهم ما أن تسقط عن وجوههم الأقنعة، ليتني التقيته في عام من أعوامي التي لم يمرق خلالها إلا المسوخ.

لا أحد يدري كم أمضي في صحبته من ساعات دون أن يعتريني السأم، إنه عالمي السري الذي بت أخشى عليه من نفسي، وفي غفلة من الجميع حزمت مشاعري وألقيت بها بين صفحاته، لتغدو ملكا له وحده برغبة مني لا برغبته.

أتلو لغته بشغف، تقفز من قلب حروفها أشواك توخز قلبي وذاكرتي الضالة المغتربة، أشعر بآلامه تزحف صوب آلامي لتلتحم بها، ثم ننضم إلى موكب أوجاع شعب بأسره، ذلك الشعب الذي شتته الحروب واحتضنته المنافي.

يؤلمني شوقه لمدينته.. أكاد أنشطر نصفين وهو يتحدث عن غربته وعن حياته كلاجئ، وكم تمنيت أن أصبح نقطة.. مجرد نقطة في عالمه المترع بالأوجاع والكلمات.. أنا التي أصبحت جزءا من وجوده دون أن يشعر بوجودي.

يا لهذا العالم كم هو ضيق، كنت أظن أن لقائي به شبه محال، لكن صديقتي محقت هذا الظن وفاجأتني بما لم أتوقعه، قالت لي في آخر زيارة لها، إن الشاعر الذي أعرتك كتابه قادم بعد أيام، وهو يرغب في مقابلتك لأني حكيت له عنك كما حكيت لك عنه.

ارتبكت.. غمر وجهي الشحوب، كنت أحاول أن أداري انفعالاتي خشية افتضاح أمري، فأنا لا أنوي الإفصاح عما يجيش بداخلي، ولم أكن على استعداد لمصارحتها بحقيقة مشاعري تجاه شخص لا أعرف عنه شيئا سوى ما أخبرتني هي عنه.. حتى أني لم أفكر في متابعة أخباره أو الحصول

على صورة شخصية له رغم أنها موجودة على الكثير من المواقع الاجتماعية والأدبية، لم أفعل لأني عشقت كيانا أردته أن يكون في منأى عن الواقع، والواقع لا يحمل لي في الغالب إلا المزيد من المفاجآت والصدمات التي أتلقاها من البشر.. من أجل هذا أغلقت بابا على عالمه الذي يناسبني.. عالمه الذي كان في الواقع عالمي الذي أردته أن يكون خاليا تماما من أية شوائب أو منغصات تعكر صفو مشاعر لطالما أردت لها أن تكون في مأمن، وأن تنعم بالسلام.

مرت الأيام أسرع من المعتاد أو هكذا بدت لي.. اتصلت صديقتي وحددت لي الزمان والمكان.

أصابني التوتر في تلك اللحظة فانهارت كل قواي.. كنت أخشى على صورته أن يشوهها اللقاء، فالناس تبدو أجمل من بعيد وما أن يزول الغموض عنهم حتى يختفي السحر الذي يشدنا إليهم، وأنا لا أريد لهذا السحر أن يزول إنه يعني ديمومة توهج مشاعري.. وكم أتمنى أن يدوم عمرا بأكمله دون أن يفقد مثقال ذرة من سطوته عليّ، لكنني ورغم هذا لم أتمكن حينها من تجاهل نبضات قلبي التي كانت تحثني على سرعة الذهاب إلى مكان هو أهم وأجمل من فيه.

قلبت محتويات خزانتي.. قاومت رغبتي في ارتداء ملابس تظهر مفاتن جسدي.. ارتديت فستانا شاحبا يشبهني فلقد هرب دمي.. كل دمي ما إن أغلقت الخط مع صديقتي.

في الطريق إليه حدثت نفسي طويلا ووعدتها بما تتمناه، ثم أعدت إلى عروقي الدم الهارب منها ما إن اتخذت قرار إغلاق هاتفي المحمول والعودة إلى البيت فورا.

عزلة

جاء صوت الفنانة المعتزلة عبر إحدى القنوات الفضائية غاضبا.. محتجا على الجماهير العريضة التي خرجت تطالب بتنحي رئيس البلاد.

أشفقت عليها وأنا أردد أغنيتها الوطنية الشهيرة بحماس.

يبدو أن مطربتي المفضلة لم تكن تعرف أن أغنيتها المحفورة في وجدان كل مواطن، كانت تصدح في ميدان التحرير لتشحذ همم الجماهير الغاضبة.

عباءات

ركضتُ صوب نفسي، احتضنتها، وأقسمت لها أن أتبرأ من سذاجتي التي كادت أن تسقطني وأسرتي في غور سحيق.

لم أكن ذات خبرة بهذا العالم المسّور بالغدر، وتجاربي محض سراب، فما أنْ خرجت من تحت عباءة أبي وإخوتي حتى انضويت تحت عباءة زوجي، ولم تكن هناك مسافة بين هاتيك العباءتين، فكيف لي معرفة محيطي وأنا محاصرة بين خاصرتين؟.

تزوجت قبل انتهاء دراستي الثانوية بعامين، وحين حصولي على الشهادة بامتحان وزاري خارجي، أعربت لزوجي عن رغبتي بإتمام تعليمي الجامعي، لكنه رفض الفكرة.. وكعادتي أطعت وانزويت.

لا أدري لِمَ قررت البوح، ربما أمرني صوت الخشية من الاندماج، أو قد تكون سذاجتي، لكني قررت.. وهذا ما يشعرني بالارتياح.

في صبيحة أحد الأيام البعيدة جداً رن جرس الباب.

كنت نائمة حينها، نهضت أتعثر بنعاسي ظنا مني أن القادم هي الخادمة التي اعتادت أن تأتي في مثل هذا الوقت، لكني فوجئت برجل لا أعرفه، سلم علي بحميمية لم آلفها من رجل غريب، ثم سألني عن زوجي بعد أن عرفني بنفسه:

ـ أنا الدكتور هيثم صديق الأستاذ حسن فهل هو موجود.

ـ لا.. هو ليس هنا، بإمكانك أن تذهب إليه في مكتبه.

ـ للأسف يتعذر علي الذهاب إليه الآن، لدي بعض الأعمال التي ينبغي علي إنجازها، لأنني عدت من السفر ليلة أمس، لكن يمكنني أن أترك له بعض الأشياء التي طلبها مني قبل أن أسافر إلى كندا، أرجو أن تبلغيه تحياتي وأن تخبريه أني جلبت له معظم ما طلبه مني، اسمحي لي أن أحضر لك الأغراض من السيارة.. آه..وددت أن أخبرك أن زوجك يحبك جداً لأن كل الطلبات تخصك أنت.. جلبت لك ملابس فاخرة وقطعة بلاتينية محفور عليها أول حرف من اسمك، كما أحضرت لك دواء أرجو أن ينظم ضربات قلبك.. مم تشتكين؟

وجهت له نظرة استغراب، لكنه قال لي على الفور:

ـ أنا دكتور جراح متخصص في جراحة القلب والأوعية الدموية، ويمكنني معالجتك.. أرجو أن تشرفيني في العيادة، فالأستاذ يعرف مكانها، أرجو ألا تقلقي على قلبك فصحتك تهمنا وزوجك عزيز علينا.

مد يده دون مقدمات ليجس نبضات قلبي.. لم أعترض، ثم راح يسأل وأنا أجيب، ولم يوقفني شيء سوى ملاحظتي لتلك الارتعاشة التي بدت على صوته وعلى أصابعه التي راحت تزحف صوب ثديي، فابتعدت عنه قائلة:

ـ كفى لو سمحت سوف أزورك في العيادة لإجراء الفحص اللازم.

ـ حسنا.. سأحضر الأغراض من السيارة.

لم أفكر طويلا قبل أن أقوم بإغلاق باب الشقة بإحكام، هدأت نفسي ثم اتصلت بزوجي، وقصصت عليه ما حدث فأوصاني ألا أفتح الباب، لأنه لا يعرف هذا الشخص، وأن هذه ليست إلا لعبة قذرة غايتها توريطه في أمر ما.

بعد دقائق حضر الرجل بالفعل لكني لم أفتح له بالطبع فانصرف، وأنا لم أفعل شيئا سوى الاختباء داخل نفسي من شدة الخوف.. حتى أدمنت عباءته.

وبعد فشل تلك المحاولة بأيام ألقي القبض على زوجي بتهمة ملفقة من أحد الأصدقاء، لكن الشرطة أخلت سبيله لعدم كفاية الأدلة، فتبين لنا فيما بعد أن الرجل الذي ادعى أنه صديق زوجي كان مدفوعا من قبل

ذلـك الصـديق الـذي أراد توريطـه مـن خـلالي، معـوِّلاً علـى حـب النسـاء للهدايا، ومن حسن حظ زوجي أنني ارتديت عباءة الحيطة قبل أن أتسلم تلك الهدايا المزعومة وإلا كان مصيره مرهون بيد الشيطان.

توالـت الأيـام وأنـا أتحاشـى النـاس.. وتوسَّـد زوجـي محبـتي في مثـواه الأخير، فصار لزاماً علي خوض غمار الحياة، لكني لم أفعل شيئا سوى الاختباء تحت عباءة أبنائي.

عناكب ج١

فكرة طرحتها وسرعان ما أصبحت قيد التنفيذ!
لم يمر وقت طويل لتفتح أمامي غرفة بدت لي للوهلة الأولى أنها هجرت منذ دهر، فقد غطت أثاثها وأرضيتها أتربة كثيفة، وتدلت من سقفها خيوط عنكبوت أشعرتني بالاشمئزاز والنفور.

وقبل أن أهم بالتعبير عن استيائي، قالت لي شقيقة زوجي: هذه غرفتي قبل أن أنتقل لبيت زوجي منذ زمن ليس ببعيد، وهذا الأثاث ورثته عن أمي، إنه قديم بعض الشيء لكنه أنيق ومن الصعب أن تجدي في هذه الأيام أثاثا يماثله رقيا ومتانة، لذلك صممت على الاحتفاظ به، كما أنه يحمل رائحة ست الحبايب، رحمها الله.

لم أنطق بحرف لأني كنت أفكر في الطريقة التي ستزيل كل هذه الأتربة وشبكات العناكب المنتشرة هنا وهناك، كنت على وشك اتخاذ قرار العودة من حيث أتيت، لكنها فتحت أحد أبواب خزانة الملابس

وأخرجت بعض الشراشف والأغطية ثم وضعتها بين يدي، وقالت قبل أن تودعني: "ميخضكيش المنظر ده.. بعد متنضفيها هتبقى زي الفل بإذن الله".

ليس أسوأ من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه، فلم يكن ما قادني إلى هنا سوى تلك الرغبة التي تملكتني في الانعتاق من روتين يومي لم يرق لي، لأني لم أكن على استعداد للمكوث يوما إضافيا في بيت أحد أشقاء زوجي، بسبب ضيق الشقة وكثرة عدد ساكنيها مما يضطرني إلى الوقوف في طابور طويل لأتمكن من دخول الحمام الوحيد الذي يستخدم كدورة مياه أيضا، فاقترحت أن أنتقل إلى شقة شقيقه الآخر الذي يعيش بمفرده، وهو رجل لطيف الطباع، حلو المعشر، قليل الكلام، تكاد لا تشعر بوجوده، كما أنه يخرج إلى عمله مبكرا ويعود في وقت متأخر من الليل، وبهذا سيتوفر لي الوقت الكافي للراحة والعزلة، فأنا انعزالية الطبع ولا أجيد المجاملات مما يضعني في حرج إزاء حديث زوجة عم أولادي التي لا تنفك تتحدث عن الرجل وكيفية قصقصة ريشه أولا بأول، ثم تختتم كلامها بمثل شعبي كررته مرارا "ابنك على ما تربيه وجوزك على ما تعوديه"، وأنا لم أعود زوجي على شيء، بل هو الذي عودني على طاعته والتفاني في خدمته والحقيقة أنه يستحق ذلك.

تلك الأسباب مجتمعة هي التي دفعتني للاتصال بشقيقة زوجي، لأبلغها برغبتي في الانتقال إلى الشقة الأخرى بسبب الحرج الذي أشعر به جراء إقامتي في هذه الشقة التي لا تتسع لأهلها، وأني أشكل عليهم عبئا

بالتأكيد رغم كرمهم معي، فرحبت، والغريب أنها لم تبد استعدادها لاستضافتي وأنا لم أكن أنتظر عرضا كهذا، لأنني كنت بحاجة إلى النوم والاسترخاء لأن رحلتي لم تكن بالمستوى المطلوب، فهذه هي المرة الأولى التي أسافر دون زوجي وبقية أبنائي.

الشارع ترابي لم يرصف بعد، والمنطقة تعد من العشوائيات، أي أنها لم تخضع لقوانين التخطيط، وقد شيدت على مناطق زراعية في الأصل، فبدت كمدينة للأشباح، رغم وجود بعض العمارات المتفرقة التي شيدت على غير ما نسق.

في البداية شعرت بالانقباض، لكنني مضيت فيما أقدمت عليه، لأنني كنت متوترة وبحاجة إلى الراحة وهدوء الأعصاب.

عند عمارة تتكون من خمسة طوابق توقفنا.. تقطعت أنفاسي وأنا أرتقي السلم الإسمنتي لأصل أخيرا إلى شقة متواضعة، لكنها شديدة الترتيب فشقيق زوجي، رجل منظم، اعتاد حياة العزوبية على مدى عمره الذي تجاوز الستين، كنت على يقين من أن الإقامة معه ستطيب لي، وهذا ما حدث بالفعل، لأنه أكرمني وأحسن استضافتي.

كان يستيقظ باكرا ويجهز لي طعام الإفطار، ويقوم بتحضير طعام الغداء أيضا، تاركا لي ورقة على مائدة الطعام مكتوبا عليها "بالهنا والشفا".

قضيت معظم النهار في إزالة خيوط العنكبوت والأتربة التي تغلغلت في كل مكان، وعلى آخر النهار وبعد جهد ونوبات سعال تكررت مرات إثر مرات من أثر التراب الذي استقر في شعابي أصبحت الغرفة "زي الفل".

بعد منتصف الليل بقليل حضر شقيق زوجي حاملا أكياس فاكهة وحلوى، وبعد مراسيم الضيافة والترحيب، ذهبت إلى النوم.

كان ابني يغط في سبات عميق.. استلقيت بجواره، وقبل أن أستغرق في النوم الذي سارع بالإطباق على جفني تلقيت لطمة بالوسادة، فتحت عيني فزعة، كانت الوسادة تغطي وجهي، وكأن الذي لطمني بها أفلتها من يديه حال استيقاظي وفر هاربا.

أرسلت بصري ليجوس أرجاء الغرفة.. لا أحد! ترى من الذي فعلها؟

خرجت أمشي على رؤوس أصابعي، وعلى مقربة من باب غرفة شقيق زوجي وقفت أتنصت، فلقد ساورني الشك في أنه هو من فعل ذلك، لكن سرعان ما تبددت شكوكي حينما اخترق أذني صوت شخيره المتصاعد، فرجعت إلى غرفتي يرافقني فزعي ورعدة استقرت في جسدي ولم تبرحه طوال ساعات الليل.

عبثا أحاول تفسير ما حدث، لم تكن تهيؤات، وما كان حلما، كانت ضربة شديدة، آلمتني.. راجعت نفسي عشرات المرات، ربما يكون ابني من فعلها، لكن كيف؟ حينما استيقظت كان نائما في نفس الوضع

الذي رأيته عليه قبل أن أخلد للنوم، والوسادة كانت ملقاة على وجهي، كيف يضربني بها ثم يعود إلى وضعه بهذه السرعة دون أن أشعر بحركته؟ ثم ما الذي يجعله يفعل ذلك؟ استبعدت هذا الاحتمال ووضعت بدلا منه احتمالات أخرى.

ربما يكون عمه قد فعل هذا وخرج مسرعا قبل أن أستعيد صوابي، ثم ادعى النوم بأن جعل صوت شخيره يتعالى ليوهمني بأنه نائم، لأنه بالتأكيد كان قد خمن بأني سأقف عند بابه لأتأكد إن كان هو من فعلها أم لا، لكني استبعدت هذا الاحتمال أيضا حين تذكرت أن باب الغرفة كان مغلقا من الداخل فكيف سيخرج بهذه السرعة دون أن أشعربه ؟ وكيف دخل من الأساس؟

وهكذا قضيت جزء ً ا من الليل على هذا الحال حتى أطبق النوم على جفني من جديد.

يا إلهي.. من ذا الذي سهر الليل ليحرم جفني الوسن.. لطمة ثانية أشد من الأولى، بفزع انتصبت فوق السرير، لا حظت اختفاء الوسادة التي كانت تحت رأسي، بحثت عنها فوجدتها ملقاة على الأرض على بعد متر تقريبا من سرير نومي.

لم أخرج هذه المرة خارج الغرفة، لأني كنت على يقين أن الرجل لا علاقة له بما يحدث، وعلي أن أكتشف سر هذا الأمر بنفسي.

توجهت إلى الباب الذي يفضي إلى الشرفة، مددت نصف جذعي لأستكشف المكان، على يساري ارتفع سور يسيج مزرعة شاسعة عرفت فيما بعد أنها تسمى مزرعة السيد مرعي، وعلى يميني امتدت أرض شاسعة صارت مرتعا للكلاب السائبة التي تقطع الطريق على المارة أحيانا فتفزعهم وتشعرهم بالرعب.

استنجدت أكثر من مرة بأحد المارة ليسير بجواري عند عودتي إلى البيت مساء، لأنني كنت أصاب بالذعر حين ألمح عن بعد التجمع الذي يضم أكثر من خمسة كلاب، وأنا أجهل ما يدبرونه، وأخشى ردة فعلهم إذا ما مررت بهم.

هذه المنطقة غريبة، مريبة، فلقد علمت في وقت لاحق، أن العمارة التي تقع على بعد أمتار من عمارتنا شهدت جريمتي قتل، فقد قتل رجل على يد زوجته وعشيقها، وقتل ابنه على أيديهم أيضا بعد اكتشافه سر اختفاء أبيه، قبل أن أغادر الشرفة بقليل، وبينما كنت أمد نصف جسدي خارج السياج الحديدي شعرت بأيد خفية تحاول دفعي فتشبثت بالقوائم الحديدية ثم هرعت إلى الغرفة، وأنا أحاول استرداد أنفاسي بصعوبة بالغة.

يا إلهي.. ما الذي أتى بي إلى هنا وماذا ينتظرني بعد؟

في الغرفة لم يكن الوضع مطمئنا لأني شعرت بارتطام جسدي بشيء ما.. شيء غير مرئي لكني أحسست به وأكاد أجزم أني اخترقته كما يخترق الماء قطعة إسفنج هذا ما شعرت به.

قضيت ما تبقى من الليل في قراءة المعوذتين وترتيل آية الكرسي وبعض آيات من الذكر الحكيم.

أقلقتني القشعريرة التي انتابت جسدي وأرعبني الصوت المتقطع الذي كان يأتيني من عمق سحيق، فقمت بلف جسدي بأحد الأغطية حتى أستره من نظرات ذلك الكائن الذي يراقبني ولا أراه.

عند شروق الشمس استغرقت في نوم عميق ثم صحوت على صوت ولدي الذي نال من النوم مأربه، فاستيقظ نشيطا، فاتحا ذراعيه للنهار، بينما أنا ألتحف الخوف وتعب السهاد.

سألته بحنو:

ـ هل نمت جيدا ليلة أمس؟

ـ نعم.

ـ هل حلمت بشيء؟

ـ لا.

ـ أتشعر بالراحة هنا؟

ـ أجل.

ـ أيهما أفضل هنا أم هناك؟

ـ هنا طبعا

ـ وما الفرق؟

ـ الشقة هناك صغيرة، أما هذه فكبيرة وتطل على الأهرامات.

ـ كيف عرفت؟

ـ خرجت إلى الشرفة فرأيتها.. أريد أن أذهب إلى هناك.

أمسكت كتفيه بكلتا يدي، ورحت أهزه بعنف:

ـ إياك أن تفعل هذا مرة أخرى.

ـ أفعل ماذا؟

ـ لا تخرج إلى الشرفة مرة أخرى.. هل فهمت؟

ـ فهمت ماما.

لم أفكر في مغادرة الشقة على الرغم من الرعب والتوجس اللذين أكابدهما، كنت مصرة على اكتشاف سر تلك الأحداث التي استمرت على مدى عشرة أيام متتاليات، أرهقني خلالها السهر، لكنني كنت أنام نهارا، ففي النهار لا أثر لما يحدث ليلا على الإطلاق.

في إحدى الليالي وفي لحظة إطباق جفني على النوم الذي كنت في أمس الحاجة إليه، اخترق عيناي ضوء انبجس من قلب العتمة التي كانت تغلف المكان، فتحت عيني مندهشة لأجد النار قد أمسكت بالستائر وامتدت إلى الأثاث الذي يجاورها، سحبت ابني فاستيقظ فزعا، هرعت إلى غرفة عمه مستغيثة، فخرج حافيا.. مترنحا، يا للحرج.. لا نيران.. لا أثر لاحتراق.. اللعنة ما الذي حدث؟

اعتذرت منه وبررت فزعي بأنني أعاني من كوابيس ليلية بسبب تغيير المكان، لأنني لم أكن أنوي إخباره بما يحدث لي حتى لا أعكر صفو لياليه التي تنعم بالسلام.

في الصباح توجهت إلى الخطوط الجوية وأكدت حجز العودة لأني اكتفيت بهذا القدر من الخوف والمعاناة، كما أنني كنت على يقين من توصلي إلى السر الذي يقف وراء تلك الأحداث.

في الليلة الأخيرة غادرت الغرفة حاملة معي الوسائد والأغطية لأنام على الأريكة في الصالة، والغريب أنني نعمت بنوم هادئ هانئ فتأكدت مما ذهب ظني إليه.

قبل أن أغادر الشقة عائدة إلى بلادي دخلت إلى الغرفة التي قضيت فيها ليالَي سوداء، ورحت أتكلم بصوت مسموع:

ـ أعتذر عن اقتحامي لخلوتكم، ربما أكون قد سببت لكم بعض الإزعاج، لكن إزعاجكم لي كان أمض، فلقد حرمتوني النوم والراحة طوال تلك الأيام، أعرف أنكم اتخذتم من هذه الغرفة مأوى لكم، لكنني لم أكن أعلم أنكم تضيقون بالزائرين إلى الحد الذي يجعلكم تعرضونه للتهلكة وفقدان الأمان، على أي حال سأغادركم الآن لتنعموا بالراحة وتستمتعوا بخلوتكم التي أفسدها وجودي، تقبلوا أسفي واعلموا أنني لم أكن أرغب في إيذائكم أو إيذاء نفسي لأني لم أكن أعلم بوجودكم من الأساس.

بعد أعوام عدت إلى هذه الشقة بصحبة عائلتي لنعاني جميعا مما عانيته بمفردي ولنفس الأسباب.

عناكب ج٢

امتد الشارع أمامي فبدا لي الطريق المعبد أكثر أمانا وألفة، وأنا أتطلع إلى العمارات الشاهقة المتراصة والمحال التجارية والمقاهي التي جعلت المكان يضج بالحياة.

كان لابد أن يحدث هذا التغيير، فعشرة أعوام مدة كافية لتحويل هذه المنطقة العشوائية إلى حي متكامل لا يختلف عن غيره من الأحياء التي خضعت للتخطيط الإداري السليم، حتى أن الكلاب السائبة لم يعد لها أثر فيه، فالشارع يعج بالمارة ليل نهار، وهذا ما جعل قلبي يطمئن لهذه الزيارة التي ستستغرق وقتا أطول من زيارتي السابقة التي اتسمت بالقلق والأرق وعدم راحة البال.

اختلفت الشقة كثيرا بعد أن رممت وطليت جدرانها باللون الأبيض فبدت لي أكثر اتساعا بعد أن طالتها يد التغيير، والحقيقة أن شقيق

زوجي هو من قام بهذا التغيير فور علمه بموعد زيارتنا، فأشرف على عملية الترميم والطلاء بنفسه، ولا شك أنه أنفق على هذه العملية الكثير.

ترددت قليلا قبل الدخول إلى الغرفة التي حرمني ساكنوها من النوم وكادوا يفقدونني عقلي ذات يوم، لولا أنني تمسكت برباطة جأشي وقاومت ألاعيبهم حتى غادرتهم بسلام.

الغرفة نظيفة.. لا أثر لأتربة أو خيوط عنكبوت، شد انتباهي أثاثها الإيطالي الصنع الذي حل محل ذلك الأثاث الكئيب الموغل في القدم.

"إذن سننعم بنوم هادئ وهانئ"، قلت محدثة نفسي ثم خرجت لأتفقد أحوال أبنائي.

كانوا يفرغون محتويات حقائبهم في الغرفة المجاورة لغرفة نومنا، فيما جلس والدهم مع شقيقه جلسة حميمية مطولة بعد فراق دام أمدا طويلا.

كانت غرفة الأبناء أكبر مساحة من غرفتنا، انتبهت إلى ذلك وأنا أتفحصها بعناية، فلم يتسن لي رؤيتها من الداخل في المرة السابقة، لأنها كانت مغلقة.

مرت الأيام الأولى بسلام حتى أنستني مرارة الأيام التي عشتها في هذه الشقة التي لا يعرف سرها أحد غيري، وفجأة بدأت الظواهر تتجلى لكن بشدة هذه المرة وعلى مسمع ومرأى من الجميع.

بعد حفل ليلي بهيج، أقمناه بمناسبة عيد ميلاد أحد أبنائي، وبعد انصراف الضيوف ذهبنا إلى غرف النوم مجهدين، وبينما كنت أقوم بإزالة

آثار المكياج عن وجهي، سمعت صوت هدير ماء في الحمام، توجهت إلى هناك فورا.. أغلقت صنبور الماء ثم عدت إلى غرفتي.

كان زوجي لا يزال مستيقظا، طلب مني إطفاء المصباح، وقبل أن أكبس الزر عاد الصوت ذاته، فتوجهت إلى الحمام ثانية تعلو وجهي الدهشة، وفيما كنت أحاول إغلاق الصنبور، خيم على جسدي ظل كثيف، ظننته ظل زوجي، التفت.. هرب الظل.. صرخت.. لم يسمعني أحد، فهرعت إلى الغرفة مرتعدة.

كان زوجي نائما حينها، استلقيت على السرير وأنا أحاول استرداد أنفاسي التي هربت مني لحظة رؤيتي لذلك الظل العملاق.

لا أعرف ما الذي جعلني أستدعي جدتي في تلك الليلة لأصغي إلى أحاديثها التي مر عليها سنوات طوال.

كنا نلتف حولها ونصغي إليها بفزع وهي تتحدث عن البيوت المسكونة، وعن (الطنطل) الذي يخرج من الخرائب ليفزع الناس.

قالت إن هنالك مخلوقات تعيش معنا جنبا لجنب منذ القدم وإلى الآن، لكننا لا نستطيع رؤيتها، بينما هي ترانا بوضوح، وإنها كما بني البشر، فيهم الصالح والطالح.

"لماذا نظن أن أحاديث الجدات ما هي إلا تخاريف، أو ثقافة جيل آمن بالخرافات؟"

ترى من أي الفئتين يكون هذا العملاق؟ هل هو ضار أم نافع؟ من أساليبه المروعة يبدو أنه ضار، "احفظنا يارب".

صرخات مدوية.. ماما .. بابا، آه.. ابنتي تصرخ..

استيقظ والدها فزعا.. هرعنا إلى الغرفة المجاورة.

قالت وهي تتنشج:

ـ ارتفع السرير إلى أعلى وكاد أن يلامس السقف، ثم سقط فجأة على الأرض، كيف حدث هذا يا أبي؟ ما الذي حدث يا أمي؟

ماذا أقول لهم؟ هل أخبرهم بحقيقة ما يحدث وأصيبهم بالرعب أم أصمت؟

فضلت الصمت على أن أتفوه بكلمة أجهل عواقبها.

حاولنا جاهدين أن نهدأ من روعها، لكننا فشلنا وفشلت محاولتنا في تهدئة أخويها اللذين أصيبا بعدوى الخوف مما اضطرني إلى المكوث معهم حتى الصباح.

"ها هم قد عادوا مجددا.. أي مصير ينتظرنا في هذا البيت المشؤوم؟"

تمكنت من تهدئة الجميع في تلك الليلة المروعة، لكني لم أتمكن من تهدئة نفسي، لأني كنت أخشى ما لا يحمد عقباه.

الأيام التالية تخللها بعض الهدوء، فقد غادرنا الشقة صباحا، متجهين إلى مدينة "ذهب" السياحية، وهناك تمكنا من محو ما علق في

نفوس أبنائنا من فزع، مما دفعني للقيام بمغامرة طائشة كادت أن تعرضني لأزمة صحية خطيرة بسبب ارتفاع ضغط الدم المفاجئ الذي بلغ أقصى درجاته أثناء توغلنا في مياه البحر الأحمر.

في البداية كانت الأمور تسير على ما يرام ونحن نقوم بمطاردة الأسماك الملونة المختلفة الأنواع والأشكال، ونستمتع بمشاهدة الشعب المرجانية الرائعة الجمال، ثم جحظت عيناي فجأة وشعرت بصعوبة في التنفس وقد تنبه لذلك أحد الغواصين الذين كانوا يرافقوننا، فقام بإخراجي من المياه على الفور، ثم أجريت لي إسعافات أولية قبل أن يتم نقلي إلى المركز الطبي لأخضع لعلاج دام يومين متتاليين، أصيب خلالها أبنائي وزوجي بالذعر وبتأنيب الضمير، لأنني قمت بتلك المغامرة المميتة نزولا عند رغبتهم، أما أنا فقد تحاملت على نفسي وأصررت على مغادرة المشفى، لأجنب أسرتي الخوف والقلق وأعيدهم إلى أجواء المرح التي كانوا ينعمون بها، وقد تمكنت من ذلك بالفعل، حتى أنني نسيت أو تناسيت قلقي من احتمال تعرضنا إلى ما هو أسوأ، إذا ما عاودت تلك القوى الخفية ترويعنا حال عودتنا إلى ذلك البيت المريب.

كل شيء على ما يرام، الليلة الأولى مرت بسلام، والثانية أيضا، لا شيء سوى الحديث عن تلك المدينة الساحلية الجميلة والرغبة في الذهاب إليها مرة أخرى في أقرب وقت.

لكن هنالك شيء ما استرعى انتباهي في صباح اليوم الثالث، وهو وجود الخيوط العنكبوتية التي تدلت من زوايا الغرف وسقوفها، وقد أدهشني تناميها بهذه الكثافة خلال بضعة أيام.

قمت بإزالة الأنسجة العنكبوتية من جميع أركان البيت، وطاردت بعض العناكب الفارة حتى قضيت عليها، وبينما كنت أقوم بعملية التنظيف والإزالة، لمحت شيئا غريبا كاد أن يفقدني صوابي، ثوب ابنتي يحترق، يا للهول، من ذا الذي يريد إحراق قلبي، أكاد أشك بأنها مؤامرة تحاك ضدي بالتحديد، لأنني المتسبب الأول في زعزعة أمن واستقرار تلك المخلوقات التي استوطنت ذلك البيت منذ أعوام.

بهدوء وبحرص شديد قمت بإخماد النار التي التهمت مساحة صغيرة من ثوب ابنتي، لكنني بالتأكيد لم أتمكن من إخماد ثورة الفزع التي أصابت الجميع، مما اضطرني إلى مصارحتهم والكشف عما أخفيته عنهم، فقرر زوجي إنهاء الزيارة والعودة إلى بلادي، لكن الأمر لم ينتهِ بعد، فسوف تستأنف تلك القوى ما بدأته معنا بعد أعوام، عندما قرر زوجي العودة إلى بلاده والإقامة في هذه الشقة بالتحديد.

(الطنطل) كائن اسطوري عملاق، يسكن الخرائب و يخرج ليلا ليفزع الناس ، كان الأجداد يخافون منه ويؤمنون بوجوده ، والاسم مأخوذ من الأساطير السومرية .

عناكب ج٣

ثمة تغيير واضح الملامح طرأ على الشارع إثر تشييد مبنى ضخم منح الحي شهرة واسعة، وسمة جعلت الحياة مختلفة بعض الشيء بسبب الأعداد الكبيرة من الشباب والشابات الذين كانوا يقفون لساعات طويلة في انتظار لحظة السماح لهم بدخول المبنى.

يطلق على هؤلاء الشباب مصطلح مجاميع، وهذه المجاميع لها وظيفة حيوية ومهمة، حيث إنهم يشتركون في معظم البرامج الترفيهية.. وكثيرا ما كنا نسمع أصوات صفيرهم وضحكاتهم العالية أثناء تصوير تلك البرامج في استوديو القناة المجاورة لعمارتنا، وتعد هذه القناة من أكبر وأهم القنوات الفضائية العربية على الإطلاق.

وهكذا اطمأننا جميعا على مصيرنا في شقة (العفاريت) كما كنا نطلق عليها، حيث إن الهرج والمرج والأصوات العالية منحتنا الراحة رغم الضجيج، ولم يعد هناك ما يقلقنا، لأن معلوماتنا تفيد بأن تلك الكائنات

لا تقـترب مـن الأمـاكن الصـاخبة وتميـل إلى الأمـاكن النائيـة والمهجـورة، وهؤلاء المجانين الذين لا ينقطع صفيرهم وصراخهم ليل نهار ويستمر إلى ساعات متأخرة من الليل، ربما يجبروا نصف سكان الحي على مغادرة منازلهم بسبب أصواتهم العالية، فما بالك بكائنات تميل إلى الهدوء والعزلة حسب ما يقال، انتهى الأمر إذاً وصرنا قاب قوسين أو أدنى من السلام والاستقرار.

لا شيء على الإطلاق يشي بحدوث أمر ما، فالحياة تسير بوتيرة واحدة، نستيقظ صباحا على صوت بائع "الروبابيكيا" الذي يصل إلينا من خلال مكبرات الصوت، وننام ليلا رغم الضجيج، فليس ثمة ما يشير إلى أن البيت لا يزال مسكونا بمخلوقات تأبى الرحيل رغم ما طرأ على الشقة والحي من متغيرات.

يبدو أن ابنتي قد وقعت منذ زمن في شباك أحدهم، وربما هو من وقع في شباكها لم أعد أدري، لأنه لا ينفك عن محاولة الاقتراب منها وملامسة جسدها الغض متى تسنى له هذا، وما إن يعلو صوت ابنتي حتى تخفت جميع الأصوات مهما كانت حدتها.

لبثنا على هذا الحال لزمن ليس بالقصير، كانت ابنتي تعاني أكثر من أي فرد من أفراد أسرتنا، لأنها كانت تتعرض لمواقف لا يمكن لأحد أن يتحمل ولو جزءا يسير منها، قالت لي يوما: "إنه يحاول أن يتحدث معي، لكني أبدأ بالصراخ حالما أسمع همهماته، أتعرفين يا أمي إنه حاول

أيضا الظهور أمامي، لكني توسلت إليه ألا يفعل، ففي إحدى المرات انبثقت من قلب العتمة عين حمراء لا تشبه عيون بني البشر، فصرخت بكل ما أوتيت من قوة، لكنه لم يحاول الظهور ثانية وهذا ما جعلني أوجه له رسالة شكر كتبتها على المرآة، فكتب هو أيضا، أنت تقمعين رغباتي، لكن لا بأس سأرضخ لرغباتك حتى تطلبين بنفسك ما تخشينه الآن".

لا أخفيكم سرا، أصابني الفزع وأنا أستمع لحديث جعلني في حيرة من أمري، فلقد انهالت على رأسي تساؤلات ولدت الكثير من المخاوف "ترى هل ابنتي مريضة وتنتابها الوساوس والخيالات، أم أن ما أفصحت عنه حقيقي إلى درجة يصعب عليّ تصديقها، وفي الحالتين كان ينبغي أن ألجأ إلى أحد خيارين، إما أن أعرضها على طبيب نفسي أو أستعين بأحد المشايخ الذين يمتلكون القدرة على التعامل مع هذه الكائنات، لكنني لم أفعل شيئا مما دار في مخيلتي لأني انشغلت بخطبة ابنتي المفاجئة وقد لاقت مني القبول، مما جعلني أضغط على والدها وأنتزع موافقته انتزاعا أملا في أن يضع الارتباط حدا لهذا الكابوس المفزع.

غادرت ابنتي البيت، صار لها بيتا جديدا وحياة بدت لي لوهلة أنها تحظى بالأمن والأمان، كان هناك ما جاهدت لتخفيه عني، حتى زوجها لم يفكر بأن يخبرني بشيء، وفجأة قررا الطلاق، ولم يكن بوسعي إقناعهما التخلي عن فكرة الانفصال، نظرا للمعاناة التي أرهقت زوجها على مدار سنة كاملة، ولم يثنهما الحمل عن تنفيذ هذا القرار.

قـال لي زوجهـا: في البدايـة كنـت أسـتيقظ فزعـا علـى صـوت صرخاتها، ثم بـدأت أشعر بوجوده حين ينـدس بيننـا محـاولا إقامـة حـاجز يفصـل بيـني وبينهـا، وكثيرا مـا كنـت أرى بـأم عيـني جسـدها وهـو يتحـرك صعودا وهبوطـا في حركـة أعـرف تمامـا أسبابها، وكنـت أدرك مـا يحـدث في وجودي من خلال تقطع أنفاسها، هل يرضي هذا أحد؟ ناهيك عن تغير ملامحهـا الـتي تصـل إلى حـد البشـاعة كلمـا حاولـت الاقـتراب منهـا، بـت أشك حتى بحملها، ترى لمن ينتسب هذا الجنين.. لي أم لـه، سأترك لـك الحكم وأرجو أن يكون عادلا.

الصـدمة شـديدة لا محـال وقاسـية علـى كـل فـرد مـن أفـراد الأسـرة، لكننـا حاولنـا أن نتقبـل الأمـر ونلتـف حـول ابنتنـا الـتي صـممت علـى الاحتفـاظ بـالجنين رغـم تخلـي زوجهـا عنهـا وعنـه، ولم تقـف أيـة ظـروف في وجـه مخلـوق قـدر لـه أن يولـد، وكانـت المفاجـأة أن المولـود أشـبه بنسـخة كاربونية عن أبيه ،قد يكون لهذا التشابه أثر على الوالد الذي أحس بأن الطفل قطعة منه، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئا، وهكذا انضم لأسرتنا عنصر جديد أدخل في نفوسنا الكثير من البهجة.

خـيم الهـدوء والسـكينة علـى حياتنـا لمـدة عـامين ونصـف العـام، لا شيء أجمل من حياة تتسم بالهدوء، لم يحدث خلال تلك الفترة ما يعكر صـفو أيامنـا وفجـأة انطلقـت صـرخة مدويـة، يـا الله حفيـدي يصـرخ هـذه المرة، انتزعتـه مـن بـين يـدي ابنـتي وأنـا أقـرأ المعـوذات، كـان يرتجـف ويصـرخ بفـزع وهـو يشـير إلى أحـد زوايـا الغرفـة (بـوبي) وكلمـا نظـر إلى تلـك الزاويـة

كلما تعالى صراخه واتسعت عيناه، ترى ما الذي يراه في تلك الزاوية، لست أدري، لكنني خمنت أنه يرى كائنا غريبا وصفه بالبوبي لأنه أفزعه.

احتضنت حفيدي بقوة خشية عليه من السقوط، كان يصرخ على نحو هستيري أصابني بالتوتر، صرخت أنا أيضا: هيا اخرجوا من هذه الغرفة اللعينة ثم ذهبت به إلى الغرفة المجاورة، ولحق بي الجميع إلا ابنتي.

لم أنتبه لغيابها لأني كنت أتابع مشهدا لا أجد له توصيف، كان زوجي وأبنائي يتصرفون على نحو غريب زاد بي هلعا، إنهم يتعرضون لاعتداء من قبل عدو غير مرئي، وأنا عاجزة عن فعل أي شيء.

توقفت حشرجات الطفل وهدأ نبضه ثم غفا وكأن شيئا لم يكن، وضعته في سريري استعدادا للقيام بردة فعل قد توقف الحرب الدائرة بين الطرفين، لكن ابنتي سبقتني لتحسم الأمر.

اندفعت ابنتي نحو الشرفة بسرعة جنونية ،و لم يتمكن والدها من إنقاذها لأنه كان يذود عن ولديه، وفجأة توقف كل شيء، إلا صراخنا والعويل.

هرعنا إلى الشرفة لنستطلع الأمر، لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكن الضوء كان يعم المكان، لفت انتباهنا دخان كثيف كان يخرج من جميع منافذ البيت، في أسفل العمارة كان جمع من القطط يسير في موكب مهيب ولم نجد أثرا لابنتي قط.

الفهرس



الكاتبة في سطور

قاصة عراقية مصرية.

درست الموسيقى دراسات حرة في مصر والعراق

صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان " إلى الوراء دُرّْ" عام ٢٠٠٨.

عن وكالة الصحافة العربية بالقاهرة.

البريد الإلكتروني للكاتبة solaf_helal@yahoo.com